

ف. جيليزنياك

قصص

# من حياة دوستوفيسكي

21.7.2017



ترجمة

د. ماجد علاء الدين محمد بدرخان



دار علاء الدين

ف. جيليزنيك

قصص

# من حياة دوستويفسكي

ترجمة

د. ماجد علاء الدين محمد بدرخان



منشورات دار علاء الدين

**В. ЖЕЛЕЗНЯК**

**РАССКАЗЫ  
О ЖИЗНИ  
ДОСТОЕВСКОГО**



- قصص من حياة دوستويفسكي.
- تأليف: ف. جيليزنيك.
- ترجمة: د. ماجد علاء الدين – محمد بدرخان.
- الطبعة 2015.
- جميع الحقوق محفوظة.

الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.

## دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية - دمشق

ص. ب: 30598 هاتف: 5617071 فاكس: 5613241  
Web: [www.zoyaala-addin.com](http://www.zoyaala-addin.com) E-mail: [ala-addin@mail.sy](mailto:ala-addin@mail.sy)

ISBN: 978-9933-18-819-1

# المقدمة

أصبح من المتعارف عليه في عالم النقد الأدبي، بل ومن المؤلف لكل كاتب أو ناقد أن يذكر اسم دوستوفسكي في مقدمة الكتاب العظماء الذين بحثوا في عالم الإنسان السيكولوجي، وعكسوا الجوانب المتعددة والمتناقضة في طبيعة الفرد، وعلاقته بالمحيط الذي يعيش فيه، ويتفاعل معه. ويندر أن نجد كاتباً عاصر دوستوفسكي، أو جاء بعده في الآداب العالمية، وتمكن أن يفوص في تفكير الإنسان، ويحلل التناقضات المانولوجية في كيانه كما أبدع فيها دوستوفسكي.

وتتبع عظمة الكاتب فيودور دوستوفسكي وشهرته الواسعة في جميع أنحاء العالم من كونه قد تناول شتى المواضيع الحياتية، الخاصة منها، والاجتماعية العامة، وناقشها بكل جرأة وشجاعة، دون خوف وقدم رأيه بوضوح لمعاصريه وللإنسانية جمعاء دون مواربة أو ممالأة. وما إعجاب الملايين من الأجيال المتعاقبة بتراثه العظيم، ووقوف المثقفين عامة أمام ذكره بإجلال واحترام وإكبار إلا شاهداً حياً على ذلك الأثر الكبير، الذي شغله ويشغله دوستوفسكي في قلوب وعقول الناس، بغض النظر عن أجناسهم وأعمارهم وقومياتهم.

ولد فيودور دوستوفسكي في أسرة طبيب متواضعة، إذ كان أبوه يعمل في مستشفى خاص بمداواة الناس الفقراء. وبحكم وجوده إلى جانب والده، تعرف فيودور الشاب على مآسي الناس، وما يعانون منه من ظلم وفقر واضطهاد في ظل النظام الديكتاتوري القيصري، كما تعرف إلى العاهات والأمراض النفسية والفيزيولوجية التي يعاني منها الأفراد في المجتمع. أكمل دوستوفسكي دراسته في معهد الهندسة العسكرية

في بطرسبورغ (لينيغراد حالياً) وخدم في صفوف الجيش القيصري زهاء سنة برتبة ضابط. ولكنه لم يُطقْ هذه الحياة القاسية فقدم استقالته، وتفرغ للعمل الأدبي.

بدأ فيودور دوستوفسكي بالكتابة الإبداعية الأدبية منذ أن بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمره. وذاع صيته في الأوساط الأدبية بعد صدور الرواية الأولى «الناس الفقراء» عام 1846. ومنذ تلك اللحظة تبيأ النقاد المعروفون له مستقبلاً عظيماً في مجال الأدب، كما أشار النقاد إلى مقدرته الفائقة في تحليل الظواهر المختلفة، والمتعددة الجوانب في تاريخ الثقافة الروسية والعالمية، ومهما اختلف النقاد فيما بنوهم، حول تقييم نتاج فيودور دوستوفسكي، فإنهم كانوا وما زالوا يلتقون ويتفقون ويجمعون على أن هذا الكاتب هو مفكر إنساني فريد، من نوعه، ومناضل عنيد ضد أية محاولة تهدف للنيل من العدالة الاجتماعية، وأنه فنان واقعي عظيم...

تأثر فيودور دوستوفسكي بنتاج الكاتب الواقعي المعروف غوغول. وأشار الناقد الروسي المعروف بيلينسكي في معرض تقييمه لرواية «الناس الفقراء» إلى أن الكاتب دوستوفسكي قد تمكن وببراعة من عكس المأساة الاجتماعية «لإنسان في الحضيض» وحلّل تناقضات الواقع والمجتمع والصراع الحاد في العلاقات الاجتماعية، ليس في روسيا فحسب، بل في أوروبا الغربية، حيث أدى التطور البرجوازي الجديد إلى الكثير من الأزمات في المثل والأخلاق الاجتماعية. وفي هذا المجال كتب دوستوفسكي: «إنني وليد القرن التاسع عشر، وأمثل بلحمي ودمي ابن عدم الثقة والشك. وأعرف جيداً، - ولن أتجاهل ذلك حتى الموت - ، مدى التأثير السلبي في كياني، والناجم عن عدم الثقة بالناس من حولي».

وفي النتاجات الأدبية الأخرى التي أعقبت رواية «الناس الفقراء» مثل «التوعم» 1846، «صاحبة البيت»، «الليالي البيضاء» 1848 وغيرها. نرى أن أبطال هذه الروايات هم أناس يتعذبون نتيجة معاناتهم الشخصية، وأكثر ما يعذبهم هو ذلك الضمير الحي الذي يتسمون به.

وتعتبر مرحلة الأربعينات من القرن التاسع عشر مهمة للغاية بالنسبة لنشاط دوستوفسكي، إذ تقرب في هذه الآونة من الديمقراطيين الروس، وبشكل أساسي من النقاد بيلينسكي الذي أثر على أفكار الكاتب تأثيراً إيجابياً، ولكن دوستوفسكي لم يغير من موقفه السابق كثيراً، إذ بقي ملتزماً بأفكاره الاشتراكية الطوباوية الإصلاحية وأدى تأثره بأفكار المثقفين في تلك الآونة، وخاصة بأفكار جماعة بيتراشيفسكي، الذين آمنوا باستخدام العنف والقوة لقلب النظام القيصري، أدى ذلك على اعتقال فيودور دوستوفسكي في 23 نيسان 1849 بتهمة الاشتراك في مؤامرة لقلب نظام السلطة، وحكم عليه بالإعدام. وعندما سيق إلى ساحة الإعدام بكفنه، غير القيصر حكمه تحت الضغط الاجتماعي، واحتجاج الشعب والشخصيات المعروفة محلياً وعالمياً، وبدل الحكم بالأعمال الشاقة لمدة أربع سنوات. ونفي الكاتب بعيداً عن موطنه. وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث الدامية في فرنسا، والبلدان الأوروبية الأخرى في أوساط القرن التاسع عشر قد لعبت دوراً سلبياً في تطور شخصية الكاتب، فأعاد النظر في بعض مواقفه الثورية المعارضة، وتكوّن عند دوستوفسكي انطباع مفاده، أنه من غير الممكن تغيير الظروف القاسية السائدة في روسيا بأعمال عنف، وعن طريق الكفاح الثوري. ولقد انعكست هذه الأفكار في نتاجه المعروف «بيت الموتى»! وعلى أثر هذا، صفح القيصر عن الكاتب وأمر بعودته إلى

بطرسبورغ. ولقد أشار الكاتب إلى هذا التغيير في رسالة لأخيه إذ كتب: «ماذا أحدثت سنوات السجن والنفي بمفاهيمي وعقلي، وقلبي! إنه يصعب علي أن أتحدث إليك عن هذا، والحديث يطول. ولكن هذه السنوات، كانت بمثابة المحيط الذي لا ينضب من التفكير في نفسي، مهما ابتعدت عن الحقيقة المرة التي أعيشها... أنه يصعب الحديث علي عن قصة تغيير تفكيري واعتقادي». وتجلى هذا التغيير في عالم الكاتب الفكري على صفحات رواية «مذكرات من بيت الموتى» 1861-1862.

وتعتبر مرحلة الستينيات والسبعينيات سنوات القمة الإبداعية في نتاج دوستوفسكي، إذ صعد نشاطه إلى ذروة الإبداع الفني، ففي هذه السنوات كتب رواية «الجريمة والعقاب» 1866 و«الأبله» 1868 و«الشياطين» 1871 و«المراهق» 1875 وأخيراً «الإخوة كارامازوف» 1879-1880.

وفي مجمل هذه الروايات كان دوستوفسكي يتركز حول فكرة إنسانية أساسية، لخصها الكاتب على الشكل التالي: (إن مستقبل الإنسانية، سيكون متافياً، بل ومتناقضاً كلياً مع سياسة الحروب والحقد والكراهية بين الشعوب، والمستقبل سيكون للصادقة والسلم والتعاون بين كافة الجماعات الإنسانية، ومع الانسجام الكلي، والتضامن السلمي في كل العالم. والانسجام ليس من منطلق القوة والسيطرة، بل من مبدأ الأخوة، والطموحات الأخوية الصادقة من أجل مستقبل أفضل». ويقول الكاتب والمفكر اللبناني المعروف ميخائيل نعيمة في عرض كلامه عن أدب دوستوفسكي ما يلي: «في روايات دوستوفسكي الرهيبة عايشت المجرمين والمنفيين في مجاهل سيبيريا، والمهانين والمنبوذين في عاصمة روسيا القيصرية، وجميع أصناف البشر،

من أنبل المتطلعين إلى فوق، والناظرين إلى أسفل، وتحسست إيمان دوستوفسكي بالأمة السلافية (التي ينتمي إليها) ورسالتها الإنسانية، وبمستقبل أفضل لروسيا، تتقلم فيه أظفار الظلم والاستبداد، وتتكسر أنياب الحاجة والمذلة، فيتنفس الشعب بملء رئتيه، وتكون له الثقة بأنه لن يعرق ليهزل وليسمن غيره بنتاج عرقه، ولن يسكن الأكواخ، ويلبس الأسمال لينعم غيره بالقصور ويرقل في الديياج».

في هذا الكتاب «قصص من حياة دوستوفسكي» يتكلم المؤلف عن الأسس التراجمية في حياة الكاتب في السنوات الأخيرة، ويربط بين هذه السنوات وحصيلة حياة الكاتب من الحكم بالإعدام إلى الأشغال الشاقة إلى المنفى، وحبه المأساوي للسيدة ايسايفا، والأزمة المادية الخائقة التي عانى منها الكاتب، وعمله في الصحف والمجلات. ويروي المؤلف بأسلوب شيق وممتع شتى القصص الواقعية التي حدثت فعلاً مع الكاتب في نشاطه الإنساني، ويسرد بعضاً من الأزمات التي مرّ بها المؤلف. ويخلص مؤلف هذا الكتاب إلى نتيجة مفادها أن هذه الأزمات كانت أضعف من أن تكسر إرادة الكاتب العملاق، وأن تخمد نور تلك الشعلة الوقادة في نفس الكاتب، وبقي الكاتب حتى آخر حياته وفيماً ومخلصاً لمبادئه الأساسية ضد نظم الاضطهاد والقهر والعبودية والتسلط، وضد عالم الرأسمالية الجشع الذي رأى فيه دوستوفسكي سبباً رئيساً في مأساة المظلومين والمستغلين المهورين. وهكذا، فإن عظمة الكاتب دوستوفسكي غنية عن التعريف، ونتمنى أن ينال هذا الكتاب إعجاب القراء العرب لما فيه من معلومات قيمة، وتترجم لأول مرة إلى العربية.

الناشر

# كلمة المؤلف

تحيط هذه المجموعة من القصص بالأعوام الأخيرة من حياة الكاتب الروسي الكبير فيودور دوستوفسكي. بدأت العمل في هذه المجموعة عام 1946 وأرسلت الفصول الأولى إلى البيت - المتحف لفيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي. وفي 25 تشرين أول عام 1946 تلقيت جواباً من ف. س. دوروفاتسكايا - لوييموفا قالت فيه «لقد خرجت بانطباع جيد من خلال قراءتي للفصول الأولى. لقد أعجبتني. ففيها الحيلة واللباقة في تعاملكم مع المادة المطروحة...».

أصبحت هذه الكلمات بمثابة دافع لمتابعة العمل. وفي 15 شباط عام 1957، أقيمت أمسية أدبية في متحف دوستوفسكي، فقرأت في تلك الأمسية بعضاً من هذه القصص، وقد حازت على إعجاب الحاضرين. لقد نحوت في كتابي: «قصص من حياة دوستوفسكي» منحيين: الأول: اتخذت من الوثائق مادة رئيسية في صياغة بعض من هذه القصص.

الثاني: وضعت شخصيات من الخيال وربطتها بسيرة حياة دوستوفسكي.

علماً - أنه من الصعب جداً الإحاطة بأعماق تلك الشخصية المعقدة جداً بمجموعة من القصص، حتى أنه يصعب مجرد تصور ذلك، ولهذا لا نجد في هذه القصص سوى بعض اللحظات المتفرقة من حياة الكاتب الكبير فيودور دوستوفسكي.

# حفلة زفاف

لم يهدأ بال دوستوفسكي في الكاتدرائية: وإذا لم تأت، وإذا رفضت، ويشد من صدر قميصه الناصع اللامع على صدره، ويسأل إشبينييه ستراخوف وأفيركييف: «كيف إذاً يا أصدقاء، لماذا لن تحضر العروس؟» ويتصنع ابتسامة ويقول: «الن يحدث كما في الفودفيل<sup>1</sup> أن يفقد الرجل العجوز عروسته في يوم عرسه، أن يخطفها منه أحد الفتيان». وحاول الأصدقاء تهدئته وقال له أفيركييف بصوت حنون: «إن يبسكي بعيدة من هنا، ولا بد أن يأتي بها ابن أخيك قريباً». أما ستراخوف فقال برصانة: «أعصابك يا صديقي العزيز، أعصابك فقط». وأشعلوا الشموع في القناديل وخرج صوت المرتل خفيفاً واعظاً من مكانه (الكليروس) وسعل الشماس في المذبح، لقد تحولت كاتدرائية تروينسكي المدعوة سابقاً باسم كتيبة الحرس إسماعيل بعد إشعال المصابيح فيها إلى قاعة احتفالات، بعد أن كانت تبدو كصالة عرض ضخمة وواسعة للزوار المتأنقين. أما ميلكوف والمعروف بين الأوساط الأدبية بقدرته على السخرية من كل شيء، فقد همس لسيدة تقف قربه: «إن طلب دوستوفسكي المفاجئ بالزواج سينتهي قريباً دون أن نشرب الشمبانيا». فما كان من تلك السيدة إلا أن ضربته بقفازها على كتفه وقالت: «لا تغتب، انظر كم هو مسكين».

ابتعد دوستوفسكي جانباً واستند إلى الجدار البارد مشوش الأفكار: إنها تخدعني، لن تأتي، هذا هو جوابي».

<sup>1</sup> الفودفيل Vaudeville: نوع مسرحي هزلي، فيه الكثير من الرقص والغناء، وصل إلى روسيا من فرنسا.

لماذا تخيل دوستوفسكي أن آنا فاسيليفنا كروفين -  
كروكوفسكايا قد وافقت على الزواج منه، مع أنهم في حقيقة الأمر  
قد رفضوا طلبه ورأى بعينه كيف بكت سونيتشكا شقيقة آنا  
الصغرى شفقة عليه. كانت كروفين فتاة ذات مزاج خاص، إضافة  
لرعونتها، لكنها أعجبت.

«تعجبنى، تعجبنى»، ظل واقفاً قرب الجدار يردد «تعجبنى تعجبنى».  
لكن أن يتزوج من آنا غريغورفنا... ففيها كثير من الصبانية.  
فعمرها لا يتجاوز العشرين عاماً بعد. لكن القضية ليست في الأعمار. لقد  
ساعدته آنا غريغورفنا سنتكنا في إنهاء «اللاعب» واختزلت «الجريمة»،  
إنها حبوبة هادئة وتحاول أن تظهر بمظهر عليا القوم.

نظر حوله فرأى، الضوء، المصابيح والقناديل والحبريات في لباسهن  
البراق والجمهور الكبير الذي حضر من حبه للفضول... أتوا للسخرية...  
للسخرية! تمنى لو يستطيع أن يفر من الكاتدرائية، وأن يستأجر عربة  
لينطلق بها بسرعة الريح إلى عروسه في شارع كوسترومسكايا. لكن،  
إذا رفضت أن تأتي معه! لا لن يحتمل ذلك سيتشاجر معهم.

. كان دوستوفسكي يرتجف من أفكاره، من الغموض المحيط  
به، ومن احتمال أن يخدعوه. أراد أن يستودع حياته أمانة لديها، حياة  
دوستوفسكي.

أين هي مختارتك الرائعة يا فيودور ميخائيلوفيتش؟!

شاهد دوستوفسكي، - وكأنه يحدق من خلال الضباب - سيدة  
بصحبة السيد فرسالفين. من هؤلاء؟، ربما كانا من عائلة كاشن أو لا،  
وفجأة راح يردد كلمات أفيركييف، إن بيسكي بعيدة من هنا، لكن ابن  
أخي سريع...

أما المستعجل فيديا، أي فيودور ميخائيلوفيتش الأصغر - سائق عربة العروس، فكان يشتم الحوذي التائه في قلبه، إذ كثيراً ما توقفوا وسألوا العابرين عن شارع - كوسترومسكايا، وأخيراً وصلوا. دخل فيديا إلى بيت العروس دون أن يخلع معطفه: - «هل أنت جاهزة يا أنا غريغوريفنا، أرجوك أن تسرعي، من أجل الله إن عمي ينتظرنا في الكنيسة منذ مدة طويلة.

كانت أنا غريغوريفنا جالسة تحت إكليلها وفي ثوب زفافها برفله الطويل، محاطة بالأقارب ترتعد خوفاً، بعد أن تأخر موكب العرس مدة سبع ساعات وبدا وجهها نحيفاً للغاية من الهلع في عينيها البراقتين.

- لم يأتوا بالولد بعد. قالت العروس مرتبكة.

وحسب العادات كان لا بد من وجود ولد ليحمل أيقونة العروسين الجديدين في يوم زفافهما. وقد اختاروا لهذه المهمة ابن معلم الاختزال كوستيا أولخين.

- حسنٌ، نستغني عنه، - استعجل فيديا. علينا أن نهدي العم.

فباركت الأم ابنتها وعانقتها مودعة.

ولم تكن أنا نيكولايفنا، (كنيتهما السابقة ميلنتويوس) عاطفية الطبع، كونها تتحدر من أصل سويدي، ولم تقلق على مصير أنا المعطاة لأرمل، ليس بالفني، بل محاط بالديون، ولم يزعجها كونه أمضى فترة من الزمن في المنفى والأعمال الشاقة (كانت تحترم الشخصيات البارزة - فلقد كان زوجها المتوفى خادماً في قصر الإمبراطور) لقد أعيد لدوستويفسكي لقبه النبيل ورتبته العسكرية. وهذا يعني أن أنا وأولادها سيصبحون من سلالة النبلاء. طبعاً كانت أنا تستطيع أن تقترن بأحد

المحاسبين البسطاء في مخزن الكتب، والذي كان يهتم بها لفترة طويلة، حتى لو كان أمراً متعلماً، فهو لن يصبح في أحسن الأحوال أكثر من مدير أو مالك لأحد مخازن الكتب... بمن ستحاط المرأة الشابة؟ بالمحاسبين والكتب والأميرين والموظفين... إذاً لماذا، ومن أجل أي شيء أنهت أنا المدرسة بميدالية ذهبية. ولماذا تعلمت الاختزال. وحسب مفهوم أنا نيكولايفنا فإنه يقع على عاتق الفتاة مسؤولية تأمين دخل معين لمصروفها الشخصي. لكن يبقى الزوج أساس العائلة. وسيقبلها المجتمع الراقى كزوجة للكاتب فيودور دوستويفسكي. أما ما يتعلق بأقرباء دوستويفسكي فستستطيع أنا الابتعاد عنهم بكل لياقة وأدب. فلها طبع الأم الشديدة المراس، رغم أن والدها كان سلافياً - أم يا حبيبي غريغوري - حقيقياً، وحالماً طيباً. لقد كان مولعاً بالفنون والأدب الروسي، وتوقع مستقبلاً ناجحاً للكاتب دوستويفسكي منذ سنوات بعيدة. لقد ورثت أنا عن والدها ولعه بالأدب والمسارح... وفي كل الأحوال لم تتصور أنا نيكولايفنا أن يكون زوج ابنتها محاسباً.

- بماذا تفكرين يا أماء؟ - قاطعت الابنة خيال والدتها.

- عن أحوالي يا أنيتشكا. وتعانقا مرة ثانية.

- أسرع يا أنا غريغوريفنا، أنت تؤخرين الجميع.

ولحسن الحظ حضر الولد كوستيا.

نظر الولد كوستيا باهتمام بالغ إلى الحاضرين بعينيه الزرقاوين

وبشرته البيضاء. وكان يرتدي قميصاً أحمر من الحرير، وبنطالاً

مخملياً، وهداءً ناصعاً.

ورافقت ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا شقيقة أنا الكبرى

العروس إلى العربية، واجتمع سكان المنزل على الدرج لوداع العروس.

وكيف لا يجتمعون فابنة صاحبة البيت سترحل إلى بيتها الجديد. وكان يحترمها جميع سكان البيت لأنها تعتمد على ذاتها. ولم يكن سكان البيت من الأغنياء، فمعظمهم من الشغيلة، ولهذا كانوا يحترمونها لتواضعها وليس «كلعبة أنيقة» بل كإنسان، فقبلوها وتمنوا لها السعادة، ورشوها بحشيش الدينا..

لاحظت آنا، بعد أن انطلقت العربية، أنهم نسوا إلباس الولد كوستيا معطفه وقبعته من العجلة، فلفته برفلها الطويل. أما فيديا فراح ينظر من خلال نافذة العربة ويفكر في نفسه: «لقد اتخذ العم لنفسه زوجة صغيرة السن، إنها تليق كابنة له».

أما الأم إميليا فيودورفنا فقد ثرثرت كثيراً في أذني فيديا منذ أسبوعين: «سنعيش بعد الآن في حالة من الضيق، فالعم يتزوج من فتاة صغيرة. هذا المصروع، يريد أن يؤسس أسرة لنفسه، الأخرى به أن يعمل لتأمين حياتنا مع أرملة شقيقه الأكبر وابنها». وتنفس فيديا الصعداء فليست المشكلة هنا فقط «إنني أتأسف على حالة العروس، ستكون محرجة جداً، سيحاول باشا تسميم حياتها من خلال حقوقه كابن لعمي.. إن فيديا يعرف جيداً طباع باشا: يأمل اليكسندر إيفانوفيتش إيسايف، الذي يعتقد، أن علي واجب «الأب» العجوز أن يكفل ويضمن حياته، بل وأن يقدم له الإمكانيات للتمتع بالحياة. لقد جاء البارحة إلى إميليا فيودورفنا وسخر من والده وشاركه في ذلك كل من كاتيا وساشا بالضحك. وعارضته إميليا فيودورفنا قليلاً وهي تقول: «لا تتغصوا حياة العم» غير أنها كانت توافق آراء باشا في خوالجها الباطنية، «لكن لماذا يحرم على العم أن يتكلم» - فكر فيديا بذلك - يبدو ذلك ممنوعاً من

وجهة نظر الوالدة، أما من جهة نظري - فما زال عمي شاباً، فهو يروي النكات ويرقص عندما يشرب قليلاً «وبشكل عام كان فيديا بمشاعره نحو عمه إيجابياً.

وأخيراً وصلت العربية إلى كاتدرائية إسماعيل، وخرج الخادم مع كبش الضحية، وساعد العروس في نزولها من العربية، وحضن فيديا الولد كوستيا تحت معطفه، وحمله بحذر على درجات الكاتدرائية. نسي دوستويفسكي كل ما يحيط به، عندما ساعد عروسه، وقال:

- لقد وصلت، لم تخدعني، آه يا عزيزتي، وخرج للقائها وعلى وجهه ابتسامة عذبة، ولم يلاحظ أن أنا كانت تخفي الأيقونة تحت طرحة تاجها فأمسك بيدها وشدّ عليها حتى كادت تصرخ «أخيراً وصلت، بعد كل هذا الانتظار الطويل» وارتعش قلب أنا من الحنان والشفقة عليه. أما ما حدث بعد ذلك فقد جرى كما تجري الأحداث في الحلم. كلمات الشماس بصوته الجهوري، وحديث الراهب الهادئ الرنيم والتراتيل وأغاني الفرحة. «طيري طيري يا حمامة» و«فرحة إشعياء».

أجابت العروس على أسئلة الراهب بكلمات تكاد لا تسمع، وأحست بالارتعاش يعم جسدها عندما أحاط الخاتم إصبعها. واتجه العروسان إلى العربية لنقلهما إلى البيت بعد أن انتهينا من مراسيم التكليل والصلاة السعيدة، مصطحبين معهما الولد كوستيا والأيقونة. وفي البيت كان كل شيء جاهزاً لاستقبالها.

وبارك الشاعر أبولون نيكولايفيتش مايكوف ووالدة أنا العروسين الجديدين.

وبعد ذلك علت ضجة الاحتفال ، وارتفعت كؤوس الشمبانيا واعتلى  
التهاف «غوركا»<sup>1</sup> من الحاضرين وهم يضحكون فرحين.

كانت زجاجات الشمبانيا كثيرة للغاية ، أما الطاولة فاعتمرت  
بالمأكولات والمزهريات والشوكولا والفواكه والصحون. أما فيودور  
دوستويفسكي فكان يقدم المأكولات للمدعوين وعلى وجهه أمارات  
السعادة والغبطة ، فبدأ جذاباً فرحاً للغاية ، إذ كان يجد من الكلمات  
اللطيفة ليتحدث بها إلى كل من الحاضرين ، ودعا فيديا باشا إيسايف  
جانباً وقال له مستهزئاً ، «لقد دعوت ذلك الرجل السعيد ، عجوزاً  
بالأمس ، تخطئ في ذلك يا عزيزي».

أما أنا فشعفت فرحاً وتوردت خدودها من فرط سعادتها بزوجها  
الذي فتن الحاضرين صفاراً وكباراً.

- إنها رائعة - قال أبولون نيكولايفيتش مايكوف.

كان قد رآها سابقاً عندما اختزلت «اللاعب» ، لكنها كانت  
في فستان أسود حداداً على وفاة والدها. لقد بدت له آنذاك فتاة عادية  
من بطرسبورغ ، يبدو وكأنهم قد أحضروا فتاة أخرى بدلاً منها.  
لا - هذا احتيال.

قدم دوستويفسكي عروسه للحاضرين.

- انظروا كم هي فاتنة ، إنها إنسان رائع وذات قلب ذهبي.

ودع الحاضرون أصحاب المنزل في الساعة العشرين. واحتضن  
فيودور ميخائيلوفيتش عروسه أنا نيكوفينا ، عندما أصبحا وحيدين ،  
وأجلسها بالقرب منه.

---

<sup>1</sup> الكلمة الروسية "غوركا" (حد)- مستخدمة في حفلات الزفاف عندما تملأ أصوات الضيوف لهجوم  
كل من العروسين بتقبيل بعضهما البعض.

- أنيتشكا، يا عزيزتي، إذا ستكونين لي مدى الحياة.  
- طبعاً مدى الحياة. وأخذت يده ومالت بخصها على راحة كفه  
- مدى الحياة.  
- إن حياتك ما زالت في بدايتها، فأنت وليمينحك الله العمر الطويل،  
ستعيشين في القرن العشرين، أما أنا؟!  
- لا داعي لمثل هذه الأفكار السوداء - قاطعته أنا.  
- مضطر لقول ذلك، فأنا سعيد جداً، أنا سعيد جداً، حتى  
بلا نهاية يا أنيتشكا، وخلف نافذتهم حلّ شهر شباط العاصف  
من عام 1867.



أ. دوستوفسكايا

# السعادة العائلية

بعد ليلة الزفاف، سارت حياة أسرة دوستوفسكي بشكل مضطرب. فلم يجدا يوماً واحداً، يستطيعان فيه أن يجلسا وحيدين لينظرا في عيني بعضهما بعضاً. أو أن يتبادلا حديثاً ودياً قلبياً. كما كان يحدث أيام الخطوبة. وكان الأقرباء لا ينقطعون أبداً عن الزوجين «الشابين» وأولهم شقيقه المريض نيكولاي، الذي يحتاج لمساعدة شقيقه فيودور ميخائيلوفيتش الدائمة وشقيقته ألكسندرا، وأسرة شقيقه الأكبر وعلى رأسها إميليا فيدروفنا الألمانية المفرطة في آداب السلوك، إضافة لوقوع دوستوفسكي في نوبات الصرع.

بعد أسبوعين حضر متطوع طيب القلب وأخبر أسرة دوستوفسكي عن ظهور مقالة في صحيفة «ابن الوطن» لاذعة قارصة، كتبت على عجل تحت عنوان «زواج الروائي». يقص فيها كاتب المقالة قصة زواج «أحد كتابنا المشهورين» من فتاة يانعة جذابة تعمل في حقل «الاختزال»، وهناك الصورة الآتية، يبدو الأديب الكبير وهو يملئ عليها مؤلفه، وقد بدأ يقتلع شعر رأسه (وهذا ما هو واضح من حالة شعره الذي بدا يشكو ويماني من جراء ذلك) بسبب عدم استطاعته إيجاد خاتمة لروايته، فما كان من الفتاة «المختزلة» إلا أن قدمت له نصيبها، حتى يطور روايته، ويخلق الظروف المواتية لبدء علاقة حب متبادلة بين أبطال الرواية، ...إلخ. وأحس العروسان بنوع من الكآبة بالرغم من أنهما قد ضحكا من الخبر وبالرغم من معرفتهما أن كاتب المقالة لا بد أن يكون ميلكوف وهذا واضح من «لونه المبتذل».

حاولت أنا أن تقوم بواجبات البيت بنفسها ، ولهذا كانت تذهب للتبضع في السوق مع خادمتها ، غير أن إميليا فيودورفنا وباشا ايساف أكدا لدوستويفسكي أن السيدة الشابة تبتذر المال ، ولا يجوز إيداع النقود لديها ، كما أكدت إميليا فيودورفنا أن الزوجة الشابة ، تبدو أكثر فرحاً في معاشرتها للشبان ، وليس معه. فكانت تقول:

- إذا منحتها الحرية يا فيودور ميخائيلوفيتش فستضجر قريباً وبسرعة... دعها تتسلى مع أبناء أخيك وأقربائك. وشعرت أنا أن الأقرباء «الأحباء» بدؤوا يرسم مؤامرة ضدها.

ولم يكن يشفق عليها سوى فيودور ميخائيلوفيتش الأصغر، الطالب في الكونسرفاتور، وذلك ناتج عن طبعه الإبداعي، غير أنه لم يجد أحداً يأخذ بكلامه.

وكان بافل إيسايف فنان في صنع الأعمال الشريرة، لذلك من السهل عليه أن يعكر حياة أقربائه، رغم أنه كان يحب زوج العروس، لكن بطريقته الخاصة، بل كان يفتخر به، لكنه اعتاد العيش على حساب «والده» إضافة لذلك كانت زوجة والده تثير أعصابه لمجرد وجودها.

- أصبحت يتيماً. أخذت مني والدي. - هذا ما كان يردده لأقاربه. وفي مساء الإثنين من الأسبوع الخامس للصوم الأكبر، كان البيت بزحمته المعهودة، وقدم باشا إحدى «شعذاته».

فجأة اختفت كافة الأفلام من فوق طاولة الكتابة. وغضب فيودور ميخائيلوفيتش أشد الغضب. فراح يصفق الأبواب متتقلاً من غرفة لأخرى. وقال باشا لأنا دون أن يسمعها أحد:

- ستقتلينه. من دونك يا أنا غريغوريفنا نستطيع الحفاظ على نظام البيت.

وأحسّت أنا بالصداع يصيب رأسها فرفضت الذهاب مع زوجها لزيارة آل مايكوف، وغضب دوستويفسكي منها، وذهب وحده.

ارتمت أنا على سريرها دون أن تبدل ثيابها وأجهشت في البكاء. وأحسّت بألم يعصر قلبها ورأسها واستمرت الدموع تنهمر من مقلتيها. ولم تلاحظ مرور الزمن، كم مضى من الوقت وهي في هذه الحالة. وكان الظلام يحيط بأرجاء الغرفة وفي الباحة كان شهر آذار الموحل، فقالت أنا في نفسها «ربما توترت أعصابي وانهارت من تبدل الطقس، من حلول فصل الربيع. وهل سيكون لي ربيع حقاً، لماذا عليّ أن أشقى. وأنا ما زلت في العشرين من عمري؟ إنه يضجر مني، يحس بالملل معي - أنا لا أعجبه، لا أعجبه».

استلقت طويلاً، لكن لم يغمض لها عين.

تناهى إليها صوت فتح الأبواب عند قدوم زوجها، الذي سأل الخادمة فيدوسيا: «أين السيدة؟»، فهمست له بصوت مسموع: «تبكي في فراشها»، ومن جديد سأل الزوج: «ألا تعرفين السبب؟» فأجابت الخادمة: «لم تقل. إن دموعها تسيل أنهرأ».

هذا ما تفضلت به الأرملة الخادمة فيدوسيا، أم الأولاد الصغار أمام دوستويفسكي. وكان دوستويفسكي كثيراً ما يمر إلى المطابع أثناء ساعات عمله في الليل فيواسي كل من لم تغمض عينه بعد، ويغطيه جيداً «إنه إنسان طيب، فهو لا يشبه بافل ألكسندروفيتش، لكنه مرعب عندما يغضب». هذا ما قالته فيدوسيا ذات مرة للسيدة الصغيرة، وهي

تلتف بمنديل أخضر قديم، ذكر أنا بالمنديل المتوارث في أسرة مارميلادوف.

وشعرت أنا بالارتياح لسماعها حديث زوجها مع فيدوسيا، إذا لم تكن دون أهمية بالنسبة له. وسمعت صرير الباب ودخل دوستوفسكي ثم اقترب من السرير، وانحنى عليها وقبلها على خدها.

- أنيتشكا، لماذا تبكين يا عزيزتي.

عندئذ لم تستطع أنا أن تصبر أكثر، وقصت له عن كل همومها وعذابها وحدثه عن إميليا فيودورفنا وعن باشا إيسايف وعن عزلتها وعذابها. وتبين من خلال حديثها أن الزوج أيضاً يشاق لتلك الأحاديث الغابرة وأنه يشعر بالضجر من دونها.

. وجلس فيودور ميخائيلوفيتش على طرف السرير. واحتضن أنا بين ذراعيه.

- هل تعلمين يا أنا أن الحياة صعبة هنا. لنسافر إلى موسكو. يتوجب عليّ ذلك من أجل بعض الأعمال الأدبية. عليّ أن أزور «البشير» وسيفرح الأقرباء المسكوفيين بقدومنا. خاصة الشقيقة فيرا وابنتها سونيا، الذكية الموهوبة. هم لطفاء، سعداء وكرماء. سترين وطني ذا الأحجار البيض.

واستطاعت أنا في الظلام أن ترى وجه زوجها وعينيه اللتين تنظران إليها بكل رقة.

تابع دوستوفسكي:

- لا داعي للفضب من باشا، فهو ما يزال شاباً، من عمرك وأنا اعترف أنني مخطئ تجاهه، لم أعره الانتباه الكافي، أما - وصمت

قليلاً. أما بالنسبة للنقود، فسنحصل عليها من الممكن أن أستلف من كاتكوف لروايتي الجديدة. نعم لا بد أن أكتب رواية جديدة، وهكذا استطيع الحصول على سلفة وسندفع فوائد القرض، وأن نترك بعض النقود لإميليا فيودورفنا ولباشا أيضاً. وبعد موسكو نستطيع أن نسافر إلى الخارج لمدة ثلاثة أشهر.

أنيتشكا، هل أنت موافقة؟

- شكراً يا فيديا - أجابت بصوت مختلج - سأحبك وأحترمك

دائماً، دائماً، لكن أرجو أن لا تبتعد عني، لا داعي لذلك.

وسافرا في اليوم التالي إلى موسكو.



# في موسكو

ما زال الثلج يغطي شوارع موسكو، لكن المرء يستطيع أن يلاحظ ذوبانه وتساقط قطراته من أعالي السطوح، والصاصير بدأت تشاكس بعضها، وفي الساحات كان يسمع صوت هديل الحمام. أما طلاب المدارس فقد استبدلوا معاطفهم الشتوية بالربيعية. ولم يكن الصيام الأكبر قد انتهى بعد. وانتشرت من المطابخ والحانات رائحة حساء النطر والسّمك المقلي.

نزل دوستويفسكي وزوجته في فندق ديوسّو، وهو أحد فنادق الدرجة الأولى. وبعد أن استراحا من تعب السفر - انطلقا إلى معهد ميخوف حيث آل إيفانوف - فيرا الشقيقة الكبرى وزوجها. وانطلقا على عربة الزلاقات إلى بيتروف في شارع مياسنيتسكايا. وشعر دوستويفسكي بنشوة في روحه من هواء الربيع ومن شوارع مدينته الغالية بأبنيتها المميزة، (رافق أنا إلى أهم وأعظم المعابد والأبنية التاريخية) ومن زوجته التي توردت بعد أن لبست ثيابها بأناقة فائقة حسب الموضة. فبدت جذابة بشكل مميز. كل هذا كان له تأثيره الخاص في مشاعر وأحاسيس دوستويفسكي.

لم تضح أنا عن مشاعر خوفها من زيارة أسرة فيرا ميخائيلوفنا، وتبين فيما بعد، أن مخاوفها لم تكن عبثاً. لقد استقبلتهما فيرا ميخائيلوفنا وزوجها الطبيب ألكسندر بافلوفيتش بكل حفاوة وترحاب، أما سونيا والتي عمرها من عمر أنا وحبيبة الخال الكاتب وغيرها من الأولاد الأقرباء، فقد أفصحوا عن كثير من البرودة والحذر في علاقتهم مع الخالة أنا.

غير أن أشد ما أحنزها كان ذلك الملل. لقد بدأ كل ذلك من لعبة «ستوكالكا» المشهورة والمتداولة جداً آنذاك. جلس الزوار في مكتب صاحب البيت منتظرين العشاء. وتجمعوا حول لعبة البريفيرانس الجادة. أما الأولاد فكانوا يمرحون في القاعة. وجلس قرب أنا، شاب أبدي كثيراً من الاهتمام بها أثناء اللعب، ولم تلاحظ أنا وهي تثرثر معه بلطافة أن دوستوفسكي قد خرج من المكتب أكثر من مرة وألقى عليها نظرات غيورة. خلف طاولة العشاء جلس الشاب فجأة قرب أنا أما دوستوفسكي فجلس في مواجهتها عبوساً متجهماً. وعبثاً حاولت أنا إشراكه في الأحاديث العامة الدائرة. وقال دوستوفسكي فور انتهاء العشاء: «حان وقت ذهابنا» واعتذر بجفاء من أصحاب المنزل وقاد زوجته إلى الفندق. خيم الصمت عليهما طوال الطريق ولم تنبس أنا بكلمة حتى وصلا غرفتهما فقالت وعلائم الذعر بادية عليها من جراء نظرات دوستوفسكي السوداوية.

- هل أنت غاضب يا فيديا؟ وتراجعت إلى الخلف فوراً، بعد أن لاحظت وجه زوجها المنقلب الغاضب المرعب.

- هل تتجرتين وتسخرين مني؟ لا ورفع قبضة يده مهدداً. أنت امرأة مفنجة بدون قلب. لقد ارتكبت خطأ فادحاً عندما ربطت حياتي بك.. لماذا كنت تتغامزين مع ذلك الشاب؟ أجيبني. طبعاً فهو ولد يافع، وليس عجوزاً أرهقه العمل...

- فيديا - ووضعت راحة كفها على الأخرى. ماذا تقول، أفق، ماذا بك! فأنا أحبك...

- اسكتي أمرك بالسكوت. - نسي دوستوفسكي مكان وجوده، وصرخ بأعلى صوته بحيث يستطيع سماعه جميع نزلاء الفندق، اسكتي...

- فيديا!

وسقطت أنا على الديوان بعد أن دفعها فيديا بقوة بذارعه وأجهشت في البكاء. فكان لدموعها التأثير المباشر على دوستوفسكي.  
- اعذريني.. يا عزيزتي أنا. وركع دوستوفسكي على ركبتيه قرب الديوان. اعذريني. ظننت.. اعذري غيوراً أحمق.

لم تغف أنا حتى بزوغ الفجر ولذلك نامت حتى الواحدة ظهراً، وانتظرها دوستوفسكي ليشرى القهوة، فكان حذراً ولطيفاً معها حتى تنسى ثورة الغيرة فيه يوم أمس. وبعد يومين ذهبت أنا لزيارة شقيق إيفان - الطالب في أكاديمية بيتروفسكايا - رازوموفسكايا. وكان دوستوفسكي مشغولاً في أسرة تحرير «البشير الروسي» وأخبر أنا أنه سيكون في انتظارها مع شقيق إيفان على الغداء في الساعة الرابعة. وبعد أن أجلسها في العربة، سجل دوستوفسكي رقم العربة.  
- ارجعي معه. طلب منها دوستوفسكي.

واستضاف الطلاب أنا في قاعات الأكاديمية، وقدموا لها الشاي، وتناقشوا معها حول الآداب وعن أدب دوستوفسكي وخاصة روايته «الجريمة والعقاب» ومضى الوقت مسرعاً دون أن تلاحظ أنا ذلك. فغادرت العربة الأكاديمية بعد أن انتظرت طويلاً. وتوجب عليها أن تعود سيراً على الأقدام حتى الزقاق، حيث تقع محطة العربات وهكذا لم تعد أنا إلى الفندق مع شقيق إيفان إلا في منتصف السابعة مساءً.

لم تجد أنا زوجها في الفندق وأخبرها الخدم، أن زوجها يقف على تقاطع الطريق منذ ثلاث ساعات ينظر إلى العربات المارة. فخرجت أنا مسرعة إليه وأمسكت بيده وقادته إلى الفندق كطفل صغير.

وتناولوا الغداء سوية، وهدم الشقيق اعتذاره للتأخير اللامقصود،  
وعندما غادرهما سألت أنا زوجها.

- فيديا، لربما ظننت أنني قد هربت مع أحد الطلاب؟
- ماذا تقولين، ماذا بك؟ وأدار نظراته الحائرة جانباً.

وقص الطبيب ألكسندر بافلوفيتش في إحدى الأمسيات لأنا عن  
الاضطرابات الفصلية، التي عانت منها ماريما دميتريفنا زوجة  
دوستويفسكي الأولى وذلك قبل وفاتها.

- كانت امرأة خيالية، ذات طباع صعبة، متحمسة، ملتهبة للغاية،  
كنا نخاف أن نترك باشا معها. فكان الولد يقضي عطلة المدرسية  
عندنا. أني أرثي لحالتها كطبيب. تصوري، تلك المرأة المسكينة، مصابة  
بداء السل في أعلى مراحلها، إضافة لاضطراباتها العقلية، لم يكن أمرها  
سهلاً على فيودور ميخائيلوفيتش. فكثيراً ما كانت تقف أمام صورته  
وتصيح بأعلى صوتها:

«يا لك من شقي، وسكبير وخريج الأعمال الشاقة»

- هل كانت تحب زوجها الأول؟ - سألت أنا.

- لا أعرف، غير أن الخادمة نقلت، أنها كانت توجه لزوجها  
كثيراً من الكلمات الشائنة. لكن أرجوك يا أنا غريغوريفنا ألا تخبري  
زوجك بحديثنا هذا.

- طبعاً، لا. فلماذا أضعه أمام ذكرى ماريما دميتريفنا؟



زار دوستويفسكي وزوجته الكنائس والمعابد على جبال العسافير  
(فوريويفسكي) والجناح الحربي في قصر الكرملن. وزارا مقبرة

لازاريفسكوي، وذهبا إلى قبر والدة دوستويفسكي. ولكي تتعرف أنا على المطعم المسكوفي أخذها دوستويفسكي إلى مطعم تيستوفا الشهير حيث شاهدت أنا الخدم في لباسهم البيض المطرز وهم يقدمون أشهى وأجود المأكولات. وحالف الحظ دوستويفسكي في أسرة التحرير ووافق كاتكوف على منحه سلفة قيمتها ألف روبل. وفي السبت، عشية أحد الشعانين، غادر دوستويفسكي وزوجته موسكو عائدين إلى بطرسبورغ.



م. كاتكوف

# في المصير

لم يتسم الحظ لدوستوفسكي وزوجته في بطرسبورغ، إذ توجب عليهما، بعد العودة من موسكو، أن يعتادا على المخاصمة والمشاكسة السابقة مع إميليا فيودورفنا وبافل ايسايف. لقد جنّ جنون الأقارب عند سماعهم عن رغبة دوستوفسكي وزوجته بالسفر إلى الخارج.

وكما يتساقط المطر من سماء بطرسبورغ، تساقطت طلبات الأقرباء في ضرورة تأمين حياة أسرة ميخائيل ونيكولاي، وضرورة تقديم النقود لبافل ايسايف وضرورة دفع الفوائد المترتبة من الديون.

- أنت مسؤول أمام ذكرى شقيقك الأكبر يا فيودور ميخائيلوفيتش، صرحت بذلك إميليا فيودورفنا بحماسة مؤثرة - والأفضل أن تستأجر منزلاً قرب بطرسبورغ لتصطاف به الأسرة بأجمعها من أن تلبى نزوات زوجتك الشابة. أما أنا - تابعت إميليا فيودورفنا بعد أن تصنعت ابتسامة على وجهها - فسأقوم بكافة أعمال المنزل، سأعتق الحبيبة أنيا من كافة أعمال وتدبير البيت.

عند ذاك قدمت والدة أنا نصيحة عملية لتقذ الموقف وقالت: عندما تمس القضية مصير حياة وسعادة الأسرة من الواجب التضحية والمغامرة بالأموال كافة.

وهكذا تقرر بيع أغراض صداق (جهاز) العروس أنا وهذا يعني أشياء ذهبية وفضية وطقم من الأواني المطبخية الفاخرة الثمن وموبيليا جديدة وكثير من الحاجيات الضرورية، إضافة لأوراق اليانصيب الراححة.

وفرّح دوستوفسكي أشد الفرح لنصيحة والدة أنا التي أنقذت

موقفهما إذ قال:

- آه يا عزيزتي أنيا ، كم أنا سعيد بنصيحة وتدبير والدتك. أنا شاكر لها من كل قلبي.

وبعد أن أرضى دوستوفسكي الدائنين بالفوائد ، ووزع النقود على الأقرباء ، سافر وزوجته إلى ساكسونيا في 14 نيسان ، وفي حوزته بعض النقود للأيام الأولى.

اعتزم دوستوفسكي وزوجته الإقامة في الخارج مدة ثلاثة أشهر ، غير أنهما أقاما هناك مدة أربع سنوات ، تلك السنوات الشهيرة في حياة أوروبا. إذ كانت تهدر كلمات محرر إيطاليا جوزيف غارibaldi ، وكانت قبضة بروسيا الفولاذية تخيم فوق أوروبا. وفي فرنسا ، نمت مشاعر عدم الارتياح لسياسة نابليون الثالث المقامرة - وبدأت الحرب البروسية - الفرنسية. وانعقد الكونغرس الأول لعصبة السلام والحرية في جنيف ، وعظم نشاط الأممية بقيادة كارل ماركس. وأطلق المهاجر الروسي بيريزوفسكي النار على ألكسندر الثاني ، وكشف النقاب في روسيا عن أشياء لا تصدق. ونهضت كومونة باريس البطلة وسقطت على المتاريس مطعونة بحراب البورجوازية العارية.

خلال هذه السنوات كتب دوستوفسكي رواية «الأبله» إضافة لكتابه مقالة عن بيلينسكي ، ورواية «الزوج الخالد» وبدأ بكتابة رواية «الشياطين».

قاربت سنوات التجوال الزوجين إلى بعضهما بعضاً. وقد عاشا أولاً في مدينة درسدن ثم انتقلا إلى بادين - بادين. وهذه الـ بادين - بادين جعلت من دوستوفسكي عبداً لألعاب القمار خلال خمسة أسابيع ، ونتج عن ذلك أن رهن حاجياته وفساتين زوجته الملبوسة ، وكتب رسائل اعتذار للأصدقاء ، بعد أن خسر الأموال التي حصل عليها.

اعترف فيودور دوستويفسكي لزوجته بخسارته، وركع أمامها وقبل يديها واعدأ أنه سيصلح هذا الأمر. عندئذ جاءت الأيام السعيدة مثل الذكرى. حتى أنهما قطعاً ثمانية فراسخ سيراً على الأقدام على درب، عبر الغابات ووصلاً قلعة أولت إيرشتاين. وهناك تناولوا طعامهما، وتحدثا عن الفنون وعن لوحات متحف درسدن. وتذكراً كل لوحة قد أعجبتهما في المتحف. كان دوستويفسكي من عشاق لوحات كلود لورين بأنهارها وبحيراتها وجسورها المقنطرة، بمناظرها الطبيعية الجميلة المنبعثة من الميثولوجيا أو من المواضيع التوراتية. واسترعت انتباهه بشكل خاص لوحة «الخليج البحري» - المرسومة بلون فضي واضح، وهناك رسمت أسيس وغالاتيا.

وقد دعى دوستويفسكي تلك اللوحة بـ «العصر الذهبي - حلم الإنسان» ومن الطبيعي أن يقدر لوحة «مادونا» لرفائيل كدليل على النبوغ والعبقرية البشرية، فقد كان يجلس طويلاً أمام اللوحة متضرعاً، وقد تأججت مشاعره. وكثيراً ما تراءى لآنا أن «مادونا» والطفل على يدها قادمة للقائها.

كانت آنا سعيدة لمفادرتها بادين - بادين حتى ولو إلى آخر الدنيا.

أخيراً حزمنا أمتعتنا بعد أن استلمنا مئة روبل من إيفان شقيق آنا وسافرنا إلى جنيف. وفي الطريق نزلاً في محطة انقلالية تدعى «أوس» فقرر دوستويفسكي البقاء ليوم واحد في مدينة بازل القوطية كي يشاهد لوحات المتحف المحلي. فقد كان مهتماً برؤية إحدى لوحات غوليين الثمانية التي تدعى «هلع المسيحيين» واللوحة عبارة عن منظر مفرق لجسد المسيح الممدد بخلاف العادة، وهنا يتطرق الفنان إلى أنفاسه العفنة

المنحلة، ويصور وجهه متورماً وآثار الضرب عالقة عليه، ووجهه مغطى بدماء جروحته، وشعره المرتد إلى الخلف وفمه المتهدل.

لم تستطع أنا النظر إلى اللوحة فانتقلت على بقية قاعات المتحف، بينما بقي دوستويفسكي أمام اللوحة متأملاً. وعندما عادت أنا بعد عشرين دقيقة وجدته على وضعه في مكانه، لم يتزحزح وفي حالة رعب مزلزة.

وبعد أن خرجا قال دوستويفسكي لزوجته أنا.

- يمكن للمرء أن يفقد إيمانه من هذه اللوحة.



استأجر دوستويفسكي وزوجته في جنيف غرفة عند عجوزين في شارع وليام تيل. وهنا ظهرت الفكرة الأولى لرواية «الأبله». فمن خلال قراءة دوستويفسكي لقصة الكاشيريين، وأفعال موظفي أرميتسكي في صحيفة «الصوت» الذين عذبوا أولادهم ذلك العذاب، الذي دفع بالفتاة أولغا ذات الخمسة عشر عاماً لمحاولة إضرام النار في منزل السيد. قرر دوستويفسكي أن يجعل من أولغا بطلة لروايته لكنه غير تلك البداية فيما بعد.

وكانت أنا تراقب بخوف كيف كان دوستويفسكي يبحث عن الحل الأمثل الأصح. لقد كتب دوستويفسكي عن شكوكه لكل من مايكوف وابن شقيقته الغالية صوفيا ألكسندروفنا إيفانوفا. وطلب من أصدقائه بالبحاح أن يزودوه بتفاصيل الجنائية، وخاصة تفاصيل جريمة التاجر مازورين الذي قام بقتل الصائغ كالميكوف.

- لا يجوز الاستهانة بالملاحظات الوثائقية. - ردّد دوستوفسكي ذلك مراراً على مسمع من زوجته، - لا يجوز فعل ذلك أبداً يا أنيتشكا. في الصحف، كانت تنعكس صورة الحياة اليومية الآنية المرعبة حيث يسيطر الجشع والركض وراء الملذات. وبالمال يصبح حتى الأحمق عملاقاً يا أنيا...

كان الكاتب قلقاً للغاية، وخاصة عندما لاحظ أن مخطوطته الأولى لرواية «الأبله» لم تكن كما أراد وكان يقلقه عندما تعتل زوجته، وحتى عندما يتبدل الطقس.

- أوه هبت الريح وهطل المطر من جديد - كان يهمس والإرهاق باد عليه -، وتأخذ أنا تهديئ من أعصابه قائلة:  
- لن يدوم المطر إلى الأبد.

- لا أعرف، لا أعرف، لكنني أشعر بالامتعاض والثقل على صدري. وفي شهر أيلول كان دوستوفسكي وزوجته شاهدين لزيارة غاريبالدي إلى جنيف لحضور كونفرس عصبة السلام والحرية، وأقام مجلس المدينة حفلاً تكريمياً لاستقبال غاريبالدي بمشاركة فرقة الموسيقى، ورفعت الأعلام عالياً وباقات الورد، تحيي زعيم إيطاليا الفتية الذي وقف يرد التحيات ويلوح بقبضته «الفاريبالدية الشهيرة».

وعندما لاحظ دوستوفسكي عدم تمكنه من كتابة رواية «الأبله» عاد للعب القمار «الروليت» من جديد في مدينة ساكس، إذ كان يسافر إليها من جنيف، ولمدة خمس ساعات. وربح في إحدى المرات ألفاً وثلاثمئة فرنك وخسرها في الحال كالعادة، أما آنا فلم تنهره عن ذلك، كونها تدرك جيداً أنه بحاجة ماسة لنفض الغبار عنه، وليروح عن نفسه

من عناء التوتر الإبداعي. آملة أن دوستوفسكي لا بد من أن يتغلب بنفسه على هذا المرض والفضى».

وهذا ما حصل فعلاً، إذ ألق دوستوفسكي عن لعبة «الروايت» بعد عام، ولم يعد إليها أبداً.

وفي نهاية شهر كانون أول أحرق دوستوفسكي النسخة الأولى لروايته «الأبله» رغم معارضة زوجته أنا.

- لا تحاولي إقناعي. لا أستطيع أن أدعها، مخجلة، ضعيفة، كان يجب أن تكتب بشكل آخر، يجب إحراقها، ومن جديد بدأ ذلك العذاب الإبداعي الذي خلق الرواية الخالدة العبقري الروسي.

وزعت في ذلك الوقت على كافة نقاط الحدود والجمارك الإمبراطورية الروسية تعليمات الشعبة الثالثة بشكل «سري جداً»، وأمر المستشار شخصياً القاضي بـ «إيقاف الملازم المسرح فيودور دوستوفسكي عند عودته إلى روسيا، وتفتيشه تفتيشاً دقيقاً، وإذا وجد في حوزته شيء من الممنوعات، فيجب تسليمه للمسؤولين المحليين ليتم تسليمه فوراً إلى الشعبة «الثالثة». وعلم دوستوفسكي بذلك من خلال رسالة تلقاها من مجهول، ولم يكن الزوجان في ذلك الوقت على علم بأي شيء، وكانت أنا سعيدة بتطور مخطوطة الرواية بصورة ناجحة. لقد أحسّت أنا أن دوستوفسكي يكتب عملاً رائعاً، وافتخرت بنصيب حياتها، مع أن دوستوفسكي لم يكن مقتنعاً بنفسه أو راضياً عن عمله فكان يردد دائماً «الفكرة أعمق مما أكتب» ومع اقتراب رأس السنة، أي في الرابع والعشرين من كانون أول أرسل دوستوفسكي الفصول الأولى من روايته «الأبله» لأسرة تحرير «البشير الروسي». وفي الواحد والثلاثين من نفس الشهر، قامت أنا بتحضير مفاجأة سارة لزوجها مساءً ففي الساعة

العاشرة والنصف «الثانية عشرة حسب توقيت موسكو» وضعت أنا على طاولة الشاي ربع زجاجة شمبانيا. وحسب كلام دوستوفسكي نفسه «كأسيهما مع بعضهما في خلوتهما، وحدهما في وحدتهما» وتابع دوستوفسكي العمل في رواية «الأبله» أما أنا فكانت تقوم باختزال الفصل تلو الآخر.

وكانت الشقة الواقعة في الشارع الذي يحمل اسم وليام تيل، دافئة مشعة بأنوارها في كل الأمسيات. لقد عاش دوستوفسكي أسعد وأحزن لحظات حياته. فقد أنجبت أنا طفلتها البكر في شهر شباط وفقداها في الثاني من شهر أيار، ولاحظت الزوجة أن دوستوفسكي أصبح أباً حنوناً جداً جداً، وحزن بشكل مأساوي لفقدان طفلته. وفي هذه المدينة نحل دوستوفسكي حتى بدا كإنسان آخر.

كانت أنا الأم الشابة المفجوعة بموت طفلتها البكر تبكي طوال الوقت، أما دوستوفسكي فكان يجلس على الأريكة عبوساً، حزيناً، متألماً.

- لن أنساها أبداً. - كان يهمس دوستوفسكي - ، سمعا قرع الباب. ودخلت خادمة صاحبة البيت.

- إن السيد ينزعج جداً من صوت بكاء المدام، لتكف عن البكاء، فهي لا تدع السادة ينامون بارتياح.  
- ها هي متطوعة أخرى في خدمة البورجوازية.

غير أن تعارفهم بنيكولاي بلاتونوفيتش أغاريف، كان بمثابة مواساة لهما، إذ كان أغاريف قريب من روح أنا، ولم يكن من أنصار رأي غيرتسن السلبي حول رأي دوستوفسكي. فعندما كان يسهر معهم كان يقول لأنا:

- أنا أقف بجانبكم! ويفرح دوستوفسكي من قوله.

وكان أغاريف مثل دوستوفسكي يعاني من نوبات المرض. وفي إحدى الليالي سقط في ساقية وهو عائد إلى منزله في ضواحي المدينة، وبقي هناك حتى الصباح قطعته البرد، لهذا قرر الأطباء إرساله إلى إيطاليا، وقد أسف دوستوفسكي لفراقه.

أخبرني، - إنه إنسان رائع يا أنيا! - قال دوستوفسكي لزوجته، ثم أضاف ولديه أشعار جميلة، أشعار حقيقية طموحة، اسمعي وراح يقرأ لها بصوت مسموع.

وجمْتُ في العهد القديم

تعطشت، تنهّدت،

حتى يأتني القضاء والقدر

بالحياة، بالألم وبموت النبي.

صمت دوستوفسكي ثم أضاف قائلاً: هذه أشعار معذبة وكاتبها

يملك الحق في كتابتها.



ومن جنيف رحلت أسرة دوستوفسكي إلى مدينة فيفي السويسرية ومن هناك قرّرا التوجه إلى إيطاليا. وكان دوستوفسكي يعاني من أمر الجندرها التي تقرّأ الرسائل الآتية من الخارج، ويعاني مما يكتبون عنه في الصحف والكتب من شائعات، كما في كتاب غريم. ولم تستطع أنا أن تفهم سبب معاكسة القدر لهذا الإنسان الطيب المتحمس بشكل نادر لهذا الإنسان الكاتب. فهو إذا مرّ بالقرب من شحاذ، فلن يستطيع العبور دون أن يعطي الشحاذ شيئاً، وكان المشهد يبدأ على الشكل التالي:

- أنيا أعطني بعض القطع النقدية الصغيرة. - هكذا يبدأ طلبه.

- لكنك لا تملك ما يكفي للجميع. - تجيب أنا.  
عندئذٍ كان دوستوفسكي يمسك أنا من مرفقها ويقول بإلحاح:  
- أرجوك من أجل الله، من فضلك يا أنيا. وكانت تجيبه:  
- فيديا، أنت تعرف أننا لا نملك سنتيماً واحداً في البيت.  
- سأحصل على المال، أنيا أرجوك، سيرسلون لنا.  
وفي كل مرة كانت شفاته ترتجف ويظهر الألم على تجاعيد  
جبينه، ولم تستطع أنا مقاومته.  
وسرعان ما ينتهي المشهد وتعود النظارة على وجهه بعد أن يمنح  
الشحاذ بعض القطع النقدية.



ميلانو.. فلورنسا.. بولونيا.. البندقية... زيارات للمتاحف والمعابد  
لمشاهدة الأعمال الفنية فيها. إن أشد ما أدهش دوستوفسكي، تلك  
الأبواب البرونزية من صنع لورينزو غيبيرتي في معمودية القديس يوحنا  
المعمدان في فلورنسا. واستمتع بمشاهدة لوحات الفنانين الإيطاليين وخاصة  
«مادونا أنسيدي» لرفائيل، والتمثال اليوناني القديم نيكس- إلهة النصر.  
كانت أنا في انتظار ولادتها الثانية، ولهذا ضاعف دوستوفسكي  
من حنانه وحبه لها. وقد كتب لأحد أصدقائه في بطرسبورغ «إنني أنتظر  
بقلق وذعر وأمل» وغالباً ما كان يتذكر فاجمته بطفلته الأولى.  
ومن جديد أصابه الغم والكآبة من الديون المترتبة عليه في  
بطرسبورغ، وقلق كثيراً عندما سمع نبأ اعتزام باشا إيسايف على الزواج.  
إضافة لقلق وعذاب الإبداع الدائم.

وأنهى دوستوفسكي روايته «الأبله» وبدأ يفكر بـ «الإلحاد»

وكتب لمجلة «الفجر» «الزواج الخالد»، وكان يقول لأننا:

- من الضروري أن نعود إلى روسيا. «يجب أن نعود إلى روسيا في

الحال. لقد فقدت إمكانية الكتابة، فأنا لا أملك بين يدي المادة

الضرورية للكتابة، أعني الواقع الروسي، الناس الروس» - هذا ما كتبه

لأصدقائه، ونصحته أنا بالانتقال أولاً إلى براغ، وقالت:

- هناك يعيش السلافيون وهم قريبون من روسيا. ولديهم ثقافة

وحضارة غنية.

لكن لم يتم ذلك كما توهمت أنا، فلم يجدا هناك غرفاً مفروشة

للإيجار، وكان من الصعب عليهما تسديد إيجار غرفة في الفندق. ولهذا

كان من الضروري مغادرة تلك المدينة التي أدهشتهم بأثارها وحضارتها.

فكان دوستوفسكي يقف في ساحة المدينة مسحوراً بفكرة

المعلم الماهر الذي يجبر الديك على الصياح والدوران بين الطاولات.

- مدينة مذهشة- قال دوستوفسكي لزوجته - أستطيع البقاء فيها

شهوراً طويلة بكل ارتياح. أه يا أنيا، أنيا.

ويكل أسف ودع دوستوفسكي وزوجته براغ الذهبية ورحلا إلى

درسدن.



وفي درسدن كانت المتاحف والمكاتب والطقس المقبول والغرف

المفروشة، الرخيصة نسبياً. وفيها ولدت طفلتهما الثانية لوبا التي فتنت

دوستوفسكي ولقبها بالحسنة، وقد لاحظت أنا أن دوستوفسكي

كان يرى فيها نسخة منقوشة عن صورته الشخصية.

وفي درسدن أيضاً اشتعلت نار الشوق والحنان عند آنا. وأصبحت لا تعجب بكل ما يحيط بها، وتطالبه بالعودة إلى الوطن وتقنعه بضرورة ذلك، وعدم الخوف من الديون، وكانت تؤكد له أن لديها القوة والمقدرة الكافية لمساعدته لحل كل الصعاب. ووصلت إلى درسدن والدة آنا وأخوها الطالب إيفان (وقد أغلقت أكاديمية الزراعة أبوابها احتجاجاً على أسلوب معالجة قضية مقتل الطالب إيفان) واشتد الشوق لديها بالعودة إلى روسيا، وهذا ما قرراه أخيراً.

ظل دوستوفسكي وحده مدة يومين يمحص في مخطوطاته قبل سفرهم.

- آنيا - دعا زوجته، التي دخلت ورائه جالساً على الكرسي غاضباً وقد ظهرت عليه كدمات سوداء، تحت عينيه.

- خذي هذه الأوراق. وأعطائها عدة أطباق - مخطوطات رواية «الأبله» «الزوج الخالد» ونسخة من «الشياطين».

- لماذا؟ - سألت آنا. وأدار دوستوفسكي رأسه جانباً ليخفي قلقه.

- أحرقها. على كل حال سيفتشوننا في فيرجبلوفو... أحرقها.

ولم تستطع آنا سوى إنقاذ بضعة فصول من الرواية، هذه الفصول التي نقلتها والدتها، التي عادت إلى روسيا بعدهم.



وهكذا وداعاً يا أوروبا. محطة القطارات في درسدن... ثم برلين وأخيراً فيرجبلوفو. وهنا أخرجوا كل ما احتوته حقائب دوستوفسكي ووضعوا الأوراق والكتب جانباً، وكانوا قد سمحوا لبقية المسافرين بالذهاب إلى المحطة حيث كان في انتظارهم قطار بطرسبورغ.

أما في القاعة فكان رجال الجمارك يتفحصون كل ورقة ، كل صفحة كتاب.

وشعرت أنا بالخوف من تعابير وجه دوستويفسكي القاسية الغامضة وبدا وكأنه تحجر في مكانه ، وهنا صرخت الطفلة الجالسة على مقعد خشبي قاس ودون أن تكف عن الزعيق ، راحت تطالب أمها بالطعام.

- ماما أعطني خبزاً. وسكتت للحظة ثم قالت ثانية :

- ماما أعطني خبزاً. وتجهم الموظفون ورجال الجمارك.

- أسكتي ابنتك. - طلبوا من أنا.

- لا أستطيع فأنا مريضة والطفلة لم تُكمل السنة الثانية بعد ، لقد

تعبت وجاعت - أجابت أنا مستاءة من رجال الجمارك. وزعقت الطفلة من جديد.

- ماما أعطني خبزاً.

- دعوهم يمرّون ، - صاح رئيسهم الذي يرتدي بزته الرسمية المطرزة

بخيوط فضية - ستثقب هذه الطفلة غشاء أذني.

- طبعاً يا سيدي. يبدو أنهم لا يحملون شيئاً ممنوعاً. - أسرع رجال

الجمارك في الإجابة ، ثم توجهوا بحديثهم إلى دوستويفسكي..

- أيها السيد ، خذ زوجتك وطفلتك وأغراضك ، واذهب. ولم يحتج

دوستويفسكي لشيء آخر ، فقد أخذ الحمال الحقائق ، بينما حمل

دوستويفسكي طفله بين ذراعيه وانطلقوا.

وها هم الآن في العربة المقطورة ، تحيط بهم اللغة الروسية ، أما

خلف النافذة فكانت أشجار البتولا الروسية الأولى والمناظر المعروفة تمتد

أمام أعينهم.



# العودة

في الثامن من شهر تموز عام 1878 يوم وصول دوستوفسكي إلى بطرسبورغ، كان الجو حاراً ومليئاً بالغبار وكانت العربات تفرقع على الطرقات، وهي تجوب المدينة والدخان الأسود يتصاعد من المعامل على السماء الباهتة، وضرب الحراس المدنيون طوقاً حول بناء المحكمة التي تجمهر الناس في قاعاتها، أصدرت حكما على المشتركين مع نيتشايف والمختفين خارج الوطن. «وكان قد تم كشف النقاب في أمكنة عديدة من الإمبراطورية الروسية عن مؤامرة تهدف إلى الإطاحة بحكومة الدولة القائمة وعن مقتل الطالب إيفانوف، وحكم على نيتشايف وأوسيبينسكي وكوزنيتسوف وبريجوف ونيكولايف بالأعمال الشاقة لمدد مختلفة، وقرأ دوستوفسكي الحكم الصادر في «البشير الروسي».

لم يكن لديهم منزل أو مال، أما الموبيليا وكافة أغراض المنزل فكانت قيد الرهن.

وكانت أنا تنتظر مولودها الثالث. أما بافل ايسايف فقد باع مكتبة دوستوفسكي الشخصية. وأجّل دوستوفسكي سفره إلى موسكو لأخذ استحقاقه من «البشير الروسي» قبل ولادة أنا.

وقال دوستوفسكي لأنا: إذا ولدت طفلاً قبل الساعة الثانية عشرة ليلاً فسندعوه فلاديمير احتفالاً بعيد الأمير فلاديمير المحتفل به في ذلك اليوم. لكن أنا ولدت في صباح اليوم التالي أي في السادس عشر من تموز زسماً الولد فيودور.

وحضر أقرباء دوستوفسكي إلى الشقة التي استأجرها في شارع

كاتيرينا. لكنهم وجدوا أن أنا قد تحولت من طفلة مرحة إلى امرأة شابة نشطة تقف بصلابة لصون مصالح أسرتها.

وكانت الأحوال المادية لأقرباء دوستويفسكي قد تحسنت خلال السنوات الأربع الفائتة، ففيدودور ميخائيلوفيتش الأصغر يعمل معلماً للموسيقا، وابن أخيه الآخر ميخائيل يعمل موظفاً في البنك، وبقي باشا إيسايف فقط، الذي تزوج من فتاة حسنة يطالب الوالد بالنقود وكان على دوستويفسكي أن يعين شقيقه نيكولاي أكثر من البقية، أما الأخ أندريه - الذي كان يقدر أهمية دوستويفسكي - فكان يعيش مستقلاً عن العائلة.

ووجدت أنا في شارع سيربوخوفسكيا - شقة متواضعة من أربع غرف وفرشتها بموبيليا تجارية مستعملة أخذتها بالتقسيط من فناء غوستين.

- فيديا - خاطبت أنا زوجها بعد أن انتقلوا إلى شقتهم الجديدة - أتعرف، لا أريد أن أقتصد في تلك الحاجيات الضرورية للكتابة، أما ما يتعلق ببقية الأشياء فعلياً أن نقتصد بها، حتى نسد ما يترتب علينا من ديون.

- أنت سيدة البيت وتعرفين أكثر مني - أجب دوستويفسكي.

وطار الداتنون إلى دوستويفسكي كالجراد، بعدما قرؤوا نبأ وصوله في الصحف، وكان فيما بينهم تاجر ألماني، قرر أن يزج دوستويفسكي في السجن لفترة طويلة معتقداً أن احتياطه الأدبي سيسد ديونه. لكن أنا حلّت المشكلة بطريقتها الخاصة. ذهبت إلى التاجر الألماني، وعندما رآها أخذ يصرخ:

- سأسجنه ، سأسجن كاتبك هذا ، هذه كلمتي الأخيرة. فردت

عليه أنا:

- حسنً اسجنه ، لكن عليك أن تدفع ثمن طعامه مدة سجنه ،  
وسأطلب من زوجي أن لا يوافق على طبع أي شيء من مؤلفاته ، وبعد عام ،  
وتعرف أنت القوانين ، سيخرج زوجي من السجن وقد تحرر من ديونك..  
- وماذا أستطيع أن أفعل؟ كاتب ولا يملك قرشاً مئموياً ، كما  
يتول الروس.

- أخجل - ثارت أنا من الغضب - إن زوجي إنسان نبيل ، ولا يريد أن  
يذكر أقرباء شقيقه المرحوم بالسوء.

- أوه وماذا تقترحين أيتها السيدة اللجوجة؟

- سأدفع لك الدين تقسيطاً ، كل شهر. ووافق التاجر.



وبدأت أنا العمل - العمل اللامحدود - خياطة الأثواب العتيقة ،  
تدقيق مؤلفات زوجها ، تدبير شؤون البيت ، العناية بالأطفال ، كل هذه  
الأشغال وإضافة لهذه الهموم ، أضاف الناشر ستيلوفسكي همأ آخر ،  
إذ قام بطباعة رواية «الجريمة والعقاب» أثناء وجود الزوجين في المهجر ،  
والآن يرفض دفع ما يترتب عليه ، وقدموا دعوى ضده تطالبه بدفع غرامة  
قدرها ثلاثة آلاف وثمانمئة روبل ، لكن متى يستلمونها. وهل سيستلمونها  
فعلاً.. العمل.. والأشغال التي لا تنتهي...

أما فيودور ميخائيلوفيتش فكان متوتر الأعصاب ، فنقاد المعسكر  
الديمقراطي يستنكرون رواية «الشياطين» التي بدأ نشرها في «البشير

الروسي» لدى كاتكوف. أما أنا فكان رأيها أن الرواية ذات نزعة خاصة وألوانها متخثرة، لكنها مع ذلك تتضمن فصولاً في قمة الروعة وكانت ترى في الوقت نفسه، بأي تقدير واحترام يتعامل أبرز شخصيات معسكر الحكومة مع زوجها، وعلى رأسهم قسطنطين بيتروفيتش بويدونوسوف والأمير ميشيرسكي وكاتب الحكومة فيليبوف.. وهذا يعني أنهم في حاجة إليه، يرون فيه قوة كبيرة، وكانت ترى كيف كانوا ينزلون أمامه من أفيركييف الذي تعرفه قديماً، والذي كتب قصة «عهد كاشيرا الغابر» والشاب فيسقولد كريستوفسكي، الضابط في الخيالة والكاتب حسب الموضة. ورأت كيف استقبلتهم أسرة كاشيروف المحترمة، والمهندس المعماري شتاكينشنيدر، ومدير البنك الحكومي لمانسكي والشعراء مايكوف وبولونسكي. وهل يمكن ذلك الجميع؟ فمنهم الفنان والعالم والمليونير، أمثال تريتياكوف الشهير، وقام الفنان بيروف برسم صورة دوستوفسكي لتحف موسكو، وعلقت أنا على اللوحة قائلة، لقد استطاع الفنان تجسيد لحظات إبداع دوستوفسكي. وبشكل عام كانت أنا ترتاح نفسياً للفنان بيروف. فهو لطيف وذكي وشريف في عمله، ولهذا ظل فقيراً.

نعم كان لدوستوفسكي القراء والأصدقاء والزملاء، وديينهم كانت شخصيات مؤثرة فعالة، لكن لم يساعده أحد منهم عندما كان في أمس الحاجة للنصيحة. كانوا يعرفون صدق دوستوفسكي البريء وعدم كونه عملياً. وبدا لأننا أنه لمن القساوة أن لا يقدم الأصدقاء المساعدة لحل المشاكل والديون والدعاوى المتعلقة بمعمل التبغ والمجلات التي خلفها شقيقه المرحوم. وكانت بعض هذه الدعاوى صورية للغاية،

واقتنعت أنا بذلك بعد أن اطلعت عليها. أما دوستوفسكي فكان يصدق كل كلمة تقال له، ويعطي الكمبيالات لمواد قد سدد ثمنها ولمقالات سددت أتعابها لأصحابها.

وكتبت أنا في مذكراتها كثيراً عن ذلك اليأس، الذي أصابها من جراء تسديد ديون الغير، لكنه كان بالنسبة لها إنسان قبل كل شيء. وأدركت أنا أن موهبة زوجها تعاني من تلك العجلة، فكيف كان الوضع آنذاك: ثلاثة فصول طبعت ونشرت في المجلات، والفصل الرابع في المطبعة والخامس في البريد المتجه إلى موسكو، أما بقية الفصول فما زالت أفكاراً في مخيلة دوستوفسكي، وشاهدت كيف كان دوستوفسكي يحك شعر رأسه متألماً، حين يقرأ إحدى قصصه في «البشير» وكان يصيح: آه يا أنيا. لو أستطيع أن أعيدها، آه لو أستطيع أن أنقحها.

ولم تخبر أنا زوجها بالزيارات التي يقوم بها بافل إيسايف مطالباً بدينه. وعن أنها رهنّت فضتها عند أحد التجار، وعن طلبات الدائنين الدائمة الملحة.

وكان الأولاد يقطعون التسمم الأكبر من وقتها.

ثيليا «هكذا لقبوا لوبا» خلعت يدها، فعالجها الطبيب، وتبين بعد ذلك أن يدها كانت مكسورة ونما العظم معوجاً. فكان على أسرة دوستوفسكي أن تعود إلى بطرسبورغ من ستازيا روساً، حيث كانت تستأجر الأسرة بيتاً صيفياً عند الراهب روميانتسيف. وأجرى البروفيسور بارتش عملية تقويم يد ليليا في العيادة، وهناك خبرت أنا عن وفاة شقيقتها ساريا.

الأشغال وسوء الحظ... سوء الحظ والأشغال.

لهذا السبب كانت ثمينة تلك الأيام السعيدة، حتى السفارة الأولى  
إلى ستاريا روساً، إلى ينابيع المياه المعدنية.

لقد سافروا بالقطار من بطرسبورغ حتى محطة سوسونكا، وبعد  
ذلك على ظهر السفينة حتى نوفغورود، ومن ثم إلى ستاريا روساً.

أيقظ دوستوفسكي زوجته في ذلك الصباح هامساً.

- أنيا! اصعدي إلى متن السفينة وانظري كم المنظر رائع ومدهش!

حقاً كان كل ما يحيط بهما رائع الجمال، الصباح الربيعي وجدران  
بيضاء من طراز جدران الكرملن، ورنين أجراس القباب الذهبية لكنيسة  
صوفيا، المتناهي إليهم من مدينة نوفغورود، تلك المدينة الروسية، من  
روسيا الوطن الذي لا يُنسى. وقفا طويلاً وفيودور ميخائيلوفيتش يحدث أنا  
عن كنائس نوفغورود وعن الأساطير التاريخية القديمة.



بعد مضي فترة من الزمن كادت تحصل أكبر مصيبة في حياة  
دوستوفسكي. لقد مرضت زوجته واعتلت إثر ظهور خراج في حنجرتها  
وارتفعت حرارتها حتى الأربعين درجة، استدعوا لها الطبيب العسكري  
فقال الطبيب بكل قسوة:

- إذا لم ينفجر الخراج خلال فترة قريبة فيمكن أن يحدث الأسوأ.  
وخارت قوى أنا ولم يعد قلبها ينبض جيداً وكان من الخطر نقلها إلى  
بطرسبورغ البعيدة، وعندما رن الطبيب مهمازيه خلفه، إثر مفارته

للمنزل، شعر دوستوفسكي باليأس يحيط به وراح يردد على مسمع زوجة الراهب:

- أماء، أنيا تموت يا أماء.. ماذا سأفعل من دونها. أنا أسألك... إلى أين سأذهب من دونها مع الأطفال. أنا لا أستطيع العيش من دونها، فهي كل شيء، هل تفهمين، هي كل شيء بالنسبة لي!  
لم تكن أنا تستطيع الكلام، ولهذا راحت تكتب على قصاصات من الورق ما يجب على دوستوفسكي أن يفعله في حال موتها.

- لا، لا، كان دوستوفسكي يبعد قصاصات الورق ويقول:  
لا أصدق... سينتقب الخراج. وذهب إلى الغرفة المجاورة، ثم أحاط رأسه بيديه وبكى بكاء مرأ.

لم تعد أنا تحسّ بشيء من شدة الألم في تلك الليلة. أما دوستوفسكي، فجلس قرب فراشها كئيباً حزيناً. لم تعد أنا تشفق عليه الآن، لم تعد تشفق على نفسها أو على أولادها، كان عمرها ستة وعشرون عاماً: «يا إلهي، ساعدني ماء... هواء، أكاد أختنق»...

وكان الضوء المنبعث من الشمعدان الكائن تحت مظلة خضراء فوق الطاولة خفيفاً، يكاد لا يضيء معالم الغرفة، وحنجرة أنا تضيق أشد وأشد، تريد أن تسعل.. وتحمر من الضغط المتوتر وتتفخ عروق جبينها، وتئن، ومن جديد تعصر حنجرتها إضافة لشخيرها المعبذب. كانت تحس كيف كان الهواء يحفر رثيتها وتترىص له بشفتيها المطبقتين بشدة على بعضهما بعضاً، ويسيل الدم من فمها، لكنها لم تعر ذلك اهتمامها.

الهواء وذلك الرجل الجالس حزيناً قرب فراشها بوجهه الغالي - هذا هو كل ما حولها، لا شيء أكثر من ذلك.

وترى أنا وجه زوجها بانجلاء وتخرج من شفيتها كلمة واحدة:

- فيديا!



ف. دوستويفسكي

# معرض اللوحات الفنية

حاز معرض اللوحات الفنية الذي أقامته أكاديمية الفنون، وشارك فيه كبار الفنانين على اهتمام كافة الأوساط. وطلب الناشر المحافظ لمجلة «المواطن» الأمير ميشيرسكي من دوستوفسكي مشاركته انطباعاته عن المعرض، تحت ذلك العنوان الذي يكتب فيه دوستوفسكي «يوميات كاتب».

وقال ميشيرسكي وهو يمد الكلمات بين شفتيه: أيها السادة، إن الفنانين الديمقراطيين يعتقدون أن ألوانهم وأساليبهم الوضيعة ستسود في الفن وستتغلب على الفن الراقي الرفيع. وأنا على يقين، أن أعينكم الصائبة سترى بوضوح تلك الركافة لأولئك الفاشلين، الذين يتخيلون أنفسهم عباقرة.

- حسب معرفتي وتقديري - أجاب دوستوفسكي - أرى أن لوحاتهم مليئة بالحياة أكثر، مليئة بالهواء المنعش أكثر من الأكاديميين. وذهب فيودور ميخائيلوفيتش إلى المعرض، إذ كان بطبعه يقدر الفنون ويفهمها.

وكان يقف الساعات الطوال أمام لوحة قد أعجبتة، سابراً أعماق فكرتها المجسدة على اللوحة.

وكان يعشق بشكل خاص لوحات متحف درسدن، وهل من الممكن نسيان «مادونا السيستين» رمز الطهارة والنقاء البشري، حتى يكاد لا يصدق أنها من صنع يد البشر. ولوحة «المسيح والدنانير» المرعشة لتيتسيا، والمناظر الطبيعية لكلود لورين.

وأول ما لاحظته دوستوفسكي في معرض بطرسبورغ هو اختلاف طبيعة الجمهور. ففي درسدن كان المشاهدون ينتقلون من لوحة لأخرى بوقار وحرصانة، حاملين مناظيرهم بمرافقة الأولاد، ويتأملون اللوحات بكثير من الرصانة الصامتة. كان ذلك شيئاً بارداً - أجنبياً، وحضر الأغنياء الإنكليزي، والسادة المتورين - ليأخذهم الشيطان - كان الإنكليزي منهم ينظر إلى اللوحة وكأنه يقدم بمجرد نظراته شرفاً عظيماً للفنان، أما هنا فالشباب متجمع أمام اللوحات، يناقشها ويمبر بيديه عن أفكاره، وهذا يدل على وجود فن حقيقي عنيف. أهذا ما تدعوه فناً منحطاً أيها الأمير. حتى رجال ونساء بطرسبورغ الكبار في السن، شاركوا في مناقشة أفكار ومواضيع اللوحات، بنشاط ظاهر للعيان، لكن ليس بحرارة الشباب. وتقدم إلى دوستوفسكي الكاتب غريغوروفيتش الذي كان زميلاً أثناء سنوات الدراسة في كلية الهندسة، وكان مرتدياً بزّة ملونة، وصدريّة مخملية وعلى عنقه ربطة عنق حديثة لم تعقد بشكل جيد، يحمل في يديه قفازيه ويتنفس وجهه بسعادة الحياة.

- آه يا عزيزي، - رحب بدوستوفسكي - ، لماذا لم تحضر يوم الافتتاح؟ آه لو رأيت كيف احتشد الجمهور آنذاك. لم يكن مقتصرأ على الشباب ورجال الفنون فقط، بل شاركت فيه كل بطرسبورغ وخاصة سيادته رئيس الأكاديمية.

- وما علاقتي بالناس وبالرئيس؟ أجب دوستوفسكي منفعلأ.  
- آه أتيت بسوداويتك إلى هنا أيضاً، لكن هذه هي خاصتك - قال غريغوروفيتش معارضأ، ولم يعد يقوى على الاحتفاظ بمزاجه السعيد. فتابع حديثه - أنا أعرف كثيراً من الفنانين، آه كم هم موهوبون يا فيودور ميخائيلوفيتش.

- لا حاجة لإرشاداتك - قاطعه دوستويفسكي غاضباً، فأنا أحاول بعقلي الصغير تمييز اللوحات. اعذرني يا ديمتري فاسيليفتش، واسمح لي أن أبقى وحيداً. سنتحدث في وقت الفراغ.

وظهرت في القاعة سيدتان مرتديتان أحد الألبسة، مسلحتان بمنظارين، يرافقهما ضابط.

- مسيو غريغوريفيتش. نادتا بصوت واحد، أي سعادة لنا إذا كنت مرافقنا خلال الجولة.

وابتسم دوستويفسكي لسماعه الحديث وتابع جولته في تأمل اللوحات.

مناظر طبيعية حقيقية خلابة، لكن، ليكن الله معهم ومع خطوطهم الذهبية، وابتعد غير راضٍ، حتى أنه لم يقرأ أسماء الفنانين، فليس كل فن فائن.

ها هما شجرتا بتولا روسيتان خاصتان بالطبيعة الروسية، للفنان أرخبب كويندجي.. منظر على الغالب «أنهما مؤثرتان فعلاً. فهناك الرياح الشديدة ومع ذلك تجتاز شجرتا البتولا كل الصعوبات».



لنعد الآن. شارك فاسيلي غريغوريفتش بيروف الذي رسم صورة دوستويفسكي لمتحف تريتياكوف في موسكو بلوحة «الصيادون في الاستراحة» فالشخصيات الثلاث المجسدة في تلك اللوحة مليئة بالرموز القومية، وعمق روح الفكاهة، وهذه لوحة «عشاق غناء البلابل» للشاب الفنان فلاديمير ماكوفسكي... صحيح أنها ليست مليئة وفيها شيء من

عدم الإتقان - طبعاً ليس كما في الغرب، لكنها غالبية على قلب دوستوفسكي ولكل مشاهد - لأن كل مشاهد يلاحظ ويشعر بكل دقة أنها من عمل فنان روسي. تاجر يستمع إلى غناء البلابل وعلى وجهه بهجة ساذجة. ربما كان في حياته بهذا الطبع، كأحد الأثرياء المختلسين، وبطبعه طاغية في بيته، لكنه مبتهج لشيء ما وهذا الابتهاج هو ما سجله الفنان في لوحته، تلك اللحظة من حياة التاجر الفارق في السعادة والغبطة. أما البائع، ذلك العسكري المتقاعد.. كم هو مليء بالكبرياء، وكم يحترم نفسه، كم هو فخور، كأنه مغنٌ إفرادي (سوليستا) «سأكتب عن ذلك فيما بعد» قرر دوستوفسكي في نفسه - آه منك أيها الأمير إن اسم عائلتك روسي، لكنك لا تفهم شيئاً من الروسية. وتجمع المشاهدون بشكل خاص حول لوحة إيليا ريبين «نواخذ على نهر الفولغا» (الرجال الذين يجرون المراكب عكس التيار). وكان من الملاحظ أن هذه اللوحة تشكل قلب المعرض، إذ تجمّع الناس حولها واحتدم النقاش بسرعة عنها.

- لم يرسم أحد من قبل مثل هذا - علق طالب ملتح - أنها خارجة من قلب الفنان، إنها الحقيقة المرعبة لأيامنا هذه. أنها تساوي عشرات من مقالات الفضائح.

وينظر الناقد فلاديمير فاسيليفتش ستاسوف برأسه الكبير، فوق المشاهدين وتعايير وجهه القاسية وبلحيته الشبيهة بلحى الرهبان يحدث في اللوحة.

وقف دوستوفسكي طويلاً يتأمل اللوحة ولاحظ بعض المشاهدين وجوده، فتهامسوا فيما بينهم.. دوستوفسكي... دوستوفسكي «لكنه»

لم يسمع شيئاً. أراد ستاسوف الاقتراب منه والتحدث معه ، لكنه ابتعد عندما شاهد تعابير وجهه المتوترة. ولحقته مجموعة الشباب التي تستمع إليه بكل حصانة ، إلى لوحة أخرى.

أخيراً تنفس دوستوفسكي الصعداء وأخرج علبة سجائره، لكنه تذكر أن التدخين ممنوع في قاعات المتحف، فأعاد العلبة إلى جيبه. كانت روسيا تنظر إليه من خلال لوحة ريابين، والشعب الروسي ينظر إليه. كنت تشعر وأنت تنظر إليها بمدرسة غوغول، المدرسة العظيمة - مدرسة حقيقة الحياة.



وفي الخلف سمع صوت إحدى السيدتين اللتين، كانتا تتجولان برفقة ذلك الضابط وغريغوريفيتش.

- آه كم هم قذرون، مرعبون، هؤلاء الموجيك، (الفلاحون) يا مسيو غريغوريفيتش فيها، شيء من الصوفية، شيء من دانتى، لكن لماذا، لماذا يجعلون من هذه السخافات ثروة ومواضيع للفنون الجميلة؟  
- آه يا عزيزتي - قالت الأخرى - إن الآداب والفنون الراهنة في زمننا منحطة وكل أتباع نيكراسوف، يشوهون أخلاق الشعب.

الفرق كبير جداً حين نشاهد لوحات متاحف إيطاليا ولوحاتنا هذه. إن هذه اللوحات تصدم النفس، والأهم - ماذا يقول الأجنب عنا؟ وأحس الضابط بشيء من الحرج فقال:

- سيدتي، يبدو أنك لم تتصفي فنائينا، فهم ليسوا أغبياء، فهذا اتجاه جديد في الفن التشكيلي وأظن أن السيد المحترم يقف إلى جانب

رأسي. أن هذه اللوحات جديرة بالاحترام والتقدير. فما كان من  
غريغوريفيتش إلا أن أشار برأسه موافقاً ، وقال في نفسه «لماذا ترمي الخرز  
أمام السيدتين».

لم يحتمل دوستوفسكي سماع الحديث خلفه فابتعد جانباً.

- من هذا؟ - سألت السيدتان باهتمام بالغ بعد أن لاحظتاها.

- فيودور دوستوفسكي. - أجاب غريغوريفيتش بجفاء.

- آه، هو بذاته؟ كم ذلك رائع.

- آه، كم هو سوداوي!

وراحت السيدتان تنظران إليه، وهو يبتعد من خلال منظاريهما.



ف. دوستوفسكي

# زيارة نيكرا سوف

من النادر جداً أن يكون الطقس جميلاً في شهر نيسان في مدينة بطرسبورغ، وخاصة قبل ذوبان الثلوج. ففي شهر نيسان يكون الجو رطباً وتهب رياح بحرية شديدة. إجمالاً يكون الجو سيئاً في شهر نيسان، لكنه كان في هذا اليوم رائعاً مشمساً، والسما صافية زرقاء ومياه نهر النيفا تتلألأ تحت أشعة الشمس، وكذلك القباب الذهبية لكنيسة إيساك. ويرج إدارة الأسطول البحري، ويخيل للمرء أن الحصان النحاسي للفارس يكاد يشب بثورة متمردة لينطلق من منصته. وعاد دوستوفسكي بعد نزته على ضفاف نهر النيفا.

- طقس رائع - قال لزوجته وهو يسير إلى مكتبه.

أحسن دوستوفسكي بنفسه خفيفاً، وكان حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كتفه، عندما أنهى العمل المطلوب منه لـ «المواطن» ولرئيس تحريرها الجديد الدكتور في الحقوق بوتسيكوفيتش.

خلع ثيابه في المكتب واستلقى على الديوان ليسترخ، وطلب بصوت بالكاد يسمع «لا توقظيها في الفجر...» وفي حلمه مَيَّز صوت جرس الباب وأصوات الخادمة وأنا وصوت رجل سعيد معروف لديه في السابق. وهنا دخلت أنا إلى المكتب وقالت:

- فيديا. لقد جاء نيكولا ي الكسيفيتش نيكرا سوف. - أخبرت

أنا زوجها مسرورة، مدركة أهمية هذه الزيارة بالنسبة لدوستوفسكي - أنه يرتدي معطفاً أنيقاً صنعت ياقته من فراء القندس، أما السلندر... ثم بدلت من طبيعة صوتها وقالت بشكل عملي: «لعله جاء من أجل عمل ما، هل أدعوه إلى المكتب؟»

لبس دوستويفسكي حذاءه وسترته.

- هل يحتاج ذلك إلى السؤال أيتها الأم، أنا شخصياً سأستقبله، شخصياً. لقد شرفني هذا الإنسان، وعلي... وكاد دوستويفسكي يهرع راكضاً لاستقبال نيكراسوف، وهو يحاول تسريح شعره بيديه إلى الخلف. كان منظر نيكراسوف بسترته السوداء، وبنطاله الإنكليزي الرصاصي احتفالياً، وكان وجهه المستطيل ولحيته الحادة وعيناه السوداوان، تنتظران بفطنة وسعادة.

لم يلاحظ دوستويفسكي للوهلة الأولى، أن شعر نيكراسوف، قد سقط عن رأسه، وأن الشيب قد غطى شعر صدغيه بشكل ظاهر، ولم يلاحظ أيضاً لون وجهه المعتل.

- نيكولاي ألكسييفيتش! وشد دوستويفسكي بقوة على يدي نيكراسوف مرحباً.

- كما ترى، حي وسالم.. تعال إذا لتتبع العادات الروسية القديمة وتماتقا.

- أنا لا أصدق، - قال دوستويفسكي وهو يأخذ نيكراسوف إلى مكتبه، - بأن هذا هو أنت! الصديق أقول. اجلسوا، اجلسوا على الأريكة.

- سأجلس بكل سرور. لقد جئت لأصفحك، وأنت لم تمنع ذلك حفاظاً على الذكريات القديمة.

- كما تريد. أنت إنسان عظيم مجيد، شاعرنا الروحي.. مع أن كل منا قد سار في طريق مختلف عن الآخر، حتى أننا تقاسمنا المسكرات يا نيكولاي ألكسييفيتش، لكنك تبقى بالنسبة لي...

- أعرف، أعرف يا فيودور ميخائيلوفيتش، قاطعه نيكراسوف بمودة - وأنا أحبك أيضاً، وأحب مؤلفاتك ما عدا «الشياطين» و«السرداب» واعذرني لذلك.

- مفهوم، مفهوم، فأنت الآن في طليعة فريق المفكرين الديمقراطيةين، أوه! كم سببتم لنا من الآلام لي وللمرحوم ميخائيل ميخائيلوفيتش! هل تذكر «الصفارة»؟

- لا داعي، لا ضرورة لذلك الآن يا فيودور ميخائيلوفيتش، وكما قلت «فريق الطليعة» فقيه اجتمع الشباب المتحمس الشريف القادر على التضحية بروحه من أجل روسيا. وإذا كانت قد ظهرت بعض المهارات الصحفية فإنها معذورة لأنه - أنتم - نحن، نحن - أنتم (فقدناكم، فقدتمونا).

- وأنا، أنا يا نيكولاي ألكسيفيتش. ألا أعمل من أجل روسيا؟ من أجل الشعب؟ حسناً فماذا تقول عن بوشكين؟ حتى بوشكين - ورجفت شفتاه - أن نهليستيته لا تضربه، لا تخلعه أو ترميه.

- آه يا فيودور ميخائيلوفيتش، على الرغم من وجود أولئك، الذين يحاولون خلع بوشكين - وهذا عائد لشبابهم، لعنفوانهم - لكن ذكرى بوشكين وأعماله لن تمس، فبوشكين سيظل كما كان بوشكين الخالد، أبد الدهر. ولو كان بوشكين موجوداً الآن لعفا عنهم. ألا تذكر «فسامح حرارة، أيام الشباب» وفكر نيكراسوف قليلاً ثم أضاف: في حقيقة الأمر، أنا سعيد، لأن بوشكين لا يعيش في عصرنا هذا. كان بكل شيء سيئاً آنذاك أما الآن... - ولاح بيده - في ذلك الوقت كان المنافقون، السفهاء ظاهرين للعين أمثال أركتشيف، غوليتسين،

بينكيندورف، أما الآن، المنافقون المعاصرون يتفوقون بدهائهم ومكرهم على أولئك - أمثال كاتكوف وميشيرسكي.

كم من الوجهاء الليبراليين يتدللون بقلوبهم المباحة للرقابة. وأنتم تعرفون ذلك جيداً يا فيودور ميخائيلوفيتش. لقد كتب بوشكين «ستسقط العبودية من جنون القيصر» والآن نرى ذلك بأعيننا، لقد كتب ذلك بوشكين رغماً عن القيصر آنذاك. ومع ذلك فقد حدث ما حدث. أما الآن فمن جهة يبدو أن كل شيء رائع، لا مثل له: مجلات، صحف، اجتماعات، قوانين جديدة وجمعيات جديدة عديدة وشركات مساهمة. أما الشعب فيقول في حقيقة الأمر «القوانين مقدسة، لكن القضاة أشرار». - إنها لفكرة رائعة، قال دوستوفسكي، وشعر بالقلق يهزه. وأضاف قائلاً صحيح ما كتبتة في أشعارك يا نيكولاي ألكسيفيتش.

«كثير من الأخطاء في هذه التخيلات

والعقل البشري رقيق، مرن

أعرف أنه في أغلال العبودية

يفكر الناس بشكل آخر».

نعم بشكل آخر يا نيكولاي ألكسيفيتش، لكن من الممكن أن يكون ذلك ضرورياً، فمن خلال البحث في العذاب والألم، سيصل الشعب إلى حقيقته.

- لقد تعذب شعبنا كثيراً وعذبوه كثيراً - فجأة صاح نيكراسوف

- اسمع يجب أن لا تتلق بمثل هذه الأفكار المسيحية، وأن لا أسمعها أنا

منك. لقد رأينا وجرينا كل شيء على عمودنا الفقري، رأينا «روائع»

حصن بطرس وبافل ومنا في سيبيريا والعسكر.

- آه يا فيودور ميخائيلوفيتش، دعنا نتكلم عن شيء آخر. لا يجوز

أن نعكر مزاجنا في هذا الطقس الجميل، الأفضل لو تحدثني عما

تكتبه من أعمال جديدة، لقد أخبروني بأنك تقترح علينا عملاً من أعمالك، ترى، حول ماذا يدور هذا العمل.

رواية يا نيكولاي ألكسيفيتش، إنها عن حياة شاب غير شرعي في الولادة، يحمل كنية أحد الخدم مع أنه في حقيقة الأمر هو ابن لأحد السادة، وأضع هذا الشاب الذي أنهى المدرسة الفرنسية والثانوية، ضمن دائرة مغريات بطرسبورغ المختلفة... وهنا كما تعلم يا نيكولاي ألكسيفيتش تكمن فكرة عظيمة، شاب أنوف يحمل كنية وضيعة، لكنه متعلم ويحمل أفكاراً مثالية، ويقع في وسط مجتمع بطرسبورغ الدنيء والمخيف، بدعارته وقلة أخلاقه، وفساد مغامراته. ويصاب الشاب بالهيجان تحت تأثير فكرة الثراء. وهنا فكرة المال - سلطة المليون عملية المليون، هذا كل شيء، وهناك بطل آخر، نموذج للسادة الجشعين، هل تفهمني؟ كنت قد فكرت بنشر الرواية في «البشير الروسي» لكنهم أخذوا مخطوط النبيل ليو تولستوي، ولا يوجد لديهم المال لروايتي. هذه هي المسألة الأولى.

أما الثانية يا نيكولاي ألكسيفيتش، لمن الصعب جداً أن تلقى فكرة روايتي استقبالاً حسناً من قبلهم. ومن خلال السيدات المحترمات، لمحت لتيموفييف في «الوطنيين» وقد أرسل يليسييف سلاماً من طرفكم مع تلك السيدة المحترمة. وهذا يعني أنكم يا نيكولاي ألكسيفيتش عازمون على نشر روايتي. وكما تعلم فأنا استلم سلفة قبل تسليم العمل. عليّ أن أتعالج في «إمس» وقد طلب مني البروفيسور كوشلاكوف الذهاب للمعالجة هناك.

- سأخذها بكل ارتياح - وضحك نيكراسوف - وسأدفع لك لكل ملزمة مئتين وخمسين روبلاً. وسأنتظر المدة الكافية لذلك.

- أنا سعيد ، سعيد يا نيكولاي ألكسيفيتش ، لكن كوني أتعامل مع «البشير الروسي» منذ مدة طويلة فمن واجبي أن أخطرهم بذلك. واسمح لي أن أخبر زوجتي عن هذا النبأ السعيد... وخرج دوستوفيسكي من المكتب فرحت أنا غريغورفنا بالنبأ ، وكانت تعرف جيداً ماذا يعني نيكراسوف بالنسبة لزوجها إضافة ، للأجر العالي.

- وافق يا فيديا ، وافق حالاً!

وشدأ على يدي بعضهما عندما خرج نيكراسوف مودعاً.

- شكراً لكم يا فيودور ميخائيلوفيتش مني شخصياً ومن يليسييف

ومن سلتيكوف - شيدريرين ومن كل زملائي.

أما ما يتعلق بالسلفة فستستلمها في أقرب وقت ، وأعتقد أنه لن

يكون هناك خلاف بيننا - وقطب نيكراسوف حاجبيه من شعاع الشمس

اللامع الساقط من خلال النافذة ثم قال:

- آه يا فيودور ميخائيلوفيتش ، كم يكون الجو رائعاً عندما تسطع

الشمس!



نيكراسوف

# الهدر والناشرة

أثقلت الديون رأس دوستوفسكي. وكان لا يشعر بالهناء لكونه لا يستطيع أن يقدم لزوجته إمكانية التمتع بالحياة، بأن يحضرا الحفلات، وأن يذهبا إلى المسارح، وأن يشتري الألعاب لأطفاله. وأخيراً وافق بعد إلحاح شديد من أصدقائه الفعالين على تحرير مجلة «المواطن» الأسبوعية، وبدأ دوستوفسكي بتحرير القسم الخاص بمراسلة القراء، و«يوميات كاتب»، أما أجره الذي كان يتقاضاه فكان جيداً من وجهة نظره، (وجهة نظر المحتاج) ثلاثة آلاف روبل للعام الواحد، إضافة لأجرة زاوية «اليوميات».

أخيراً، استطاعت آنا غريغورفنا تحقيق حلمها في إصدار مؤلفات دوستوفسكي المنشورة سابقاً في المجلات، على حسابها الخاص، فكانت بذلك أول زوجة كاتب روسي تقوم بذلك العمل المضني، الذي يتطلب المحادثات والاتفاقات مع المطابع، وتصحيح الأخطاء المطبعية، وبيع الكتب وأعمال المحاسبة. حاول الأصدقاء نهيها عن ذلك قائلين: «العملية متعبة وتحتاج لتجربة مسبقة وأنت لا تملكين مثل هذه التجربة، فهل ترغبين في مضاعفة ديونكم؟» ومع ذلك تابعت آنا عملها.

وافقت مطبعة الإخوة بانتلييف على التعامل معها بأخذ كمبيالة، وذهبت الأموال التي تقاضاها دوستوفسكي كأجرة أتعابه من «البشير الروسي» على شراء الورق. وطالب باعة الكتب آنا أن تحسم لهم أربعين وحتى خمسين في المئة من سعر الغلاف. لكن آنا المثابرة لم تمنحهم أكثر من ثلاثين بالمئة، وذلك في حال شرائهم أكثر من خمسين نسخة، أما إذا ابتاعوا عشرة نسخ فلم تمنحهم سوى عشرين في المئة كريح لهم.

- اسمحي لنا أن نكلم السيد دوستوفسكي كلمتين. طالبها  
بائعو الكتب. غير أنها رفضت ذلك بشكل قاطع. فكانت تجيب:

- لقد عمل دوستوفسكي طوال الليل وهو الآن قد أخذ للراحة.  
وهكذا أصدرت أنا خلال ثلاث سنوات ثلاث طبعات لـ: «ذكريات  
من بيت الموتى»، «الشياطين»، «الأبله» في كمية وصلت حتى سبعة آلاف  
وخمسمئة نسخة.

وكانت تحصل معهم بعض المواقف الهزلية أثناء قيامهم بهذه  
الأعمال وخاصة مع رواية «الشياطين». فيحدث أن ينسى مبعوث إحدى  
محلات بيع الكتب اسم الرواية فيقف ويحك مؤخراً رأسه، ويسأل  
الخادمة.

- قولي يا عزيزة! هل تباع الأرواح الشريرة؟ أو يأتي آخر ويقول مازحاً:  
لا وقت لدينا أيتها الحسنة، خذي النقود وأطلقني لنا سراح عشرة  
شياطين بسرعة.

وإذا لم نقل أن أسرة دوستوفسكي قد غنيت من ثمن الكتب  
و«يوميات كاتب»، التي بقيت حتى وفاة دوستوفسكي، فيمكن  
القول، أنهم استطاعوا تسديد كافة الديون المترتبة عليهم، وتأمين حياة  
لائقة بهم.

وبعد إلحاح شديد من دوستوفسكي ذهبت أنا غريغورفنا معه  
لحضور الأوبرا الإيطالية، حيث كانت تشارك فيه أدينا باتي التي  
أدهشت جمهور بطرسبورغ، واحتلال مكانين في أعلى المسرح في مواجهة  
ثريا المسرح الكبيرة، ولم يكن في استطاعتها مشاهدة الفنانين عملياً،  
غير أنهما استمعا إلى الفناء والموسيقا الرائعة بشكل جيد.



وكانت أعمال دوستوفسكي في «المواطن» جيدة في الفترة الأولى، لكنه سرعان ما بدأ يضجر من قراءة المخطوطات المرسله إليه، ومن الأحاديث والمراسلات مع الكتاب، وتقنيح الكثير من المقالات، إضافة لارتياح دوستوفسكي، وشعوره أن ميشيرسكي يعامله من فوق. فعندما تولى الشاعر والكاتب فيودور توتشيف، كتب دوستوفسكي مقالة تأبين ورتاء له، غير أن الأمير ميشيرسكي طالبه، بل أجبره على نشر مقالته الأميرية عن الشاعر توتشيف، مع أن دوستوفسكي، أراد شخصياً أن يتحادث مع القراء عن الشاعر توتشيف، لكنه اضطر أخيراً لطباعة ونشر «المقالة الأميرية». وبشكل عام قرر دوستوفسكي التخلي عن تحرير المجلة بعد أن عمل فيها مدة عام كامل.

ولم تعارضه أنا، إذ كانت ترى كيف أثقلت واجبات تحرير المجلة هموم دوستوفسكي، فكان يبدو حزيناً طوال الوقت، وكان عليه أن يقضي الصيف في غبار بطرسبورغ وأن تعيش العائلة بعيدة عنه في ستاريا روساً (أصبحت الأسرة تعيش الآن في منزل العقيد غريبي بدلأً من منزل روميانتسيف).

وفي إحدى المرات، قام دوستوفسكي بإيعاز من ميشيرسكي بنشر خبر استقبال القيصر لمثلي قرغيزيا، وجرؤا دوستوفسكي إلى المحكمة من أجل ذلك، بسبب نشره لهذا الخبر الذي يحتاج لموافقة إدارة القصر أولاً. وحكمت عليه المحكمة المنعقدة آنذاك بدفع غرامة مالية، وحجزه مدة يومين في الحبس. وبدأ الليبراليون ينظرون إليه بحذر، معبرين عن عدم رضاهم، لأنه يحرر مجلة ذات طابع ديني.

وكان على دوستوفسكي أن يهتم بقضية شقيقة والدته المتوفاة،  
والتي تركت إرثاً كبيراً تخاصم عليه الأقرباء المختلفون. (حصلت أسرة  
دوستوفسكي على حقها من الأرض الإرث بعد وفاة الكاتب).  
كل هذه الأعمال كان لها التأثير السلبي على صحته، وفي شهر  
تشرين الثاني سقط دوستوفسكي في نوبة صرع قوية.  
وعندما ترك دوستوفسكي أعمال تحرير «المواطن» لم يأسف على  
شيء، إلا على فراق مصححة الأخطاء المطبعية، التي لطفت وجملت  
ساعات عمله أثناء قيامه بتحرير المجلة، وللاذكورى احتفظ  
دوستوفسكي بمجلد صغير لفيكتور هيغو «قصة فانتين» كهدية منها،  
والتي قضى معها ساعات الحبس.



# عندما كانت الأسرة في المهجر

منذ الصباح الباكر، بدأ دوستوفسكي بتسجيل ملاحظته لمخطط روايته «المراهق»، إذ كان الهدوء يخيم على الشقة طوال اليوم، لأن آنا والأولاد ذهبوا إلى المصيف، أما الطباخة داريا فقد ذهبت إلى مكان ما غير معروف. كان دوستوفسكي سعيداً. كل شيء يحظى بالنجاح، وهذا مخطط لرواية طويلة، لكنه سجل أهم النقاط فيها. نعم، نعم أن فيودور دوستوفسكي يدرك قلب بطله. وبطله هو دولغوروكي ونيس الأمير. بطله المعذب بفكرة الحصول على المليون. فكرة بورجوازية. كل شيء يباع، كل شيء يشتري، معشوق - ذهب - معشوق - أسهم وفوائد. البطل روتشلد. لقد شاهد دوستوفسكي في إنكلترا موطن «ريتشارد قلب الأسد» عاهرة ممزقة الثياب - العجوز الطيبة. أما فرنسا، فلكل شخص حلمه - أن يصبح رجل أسهم. وماذا يعني رجل أسهم، بكلمة، يعني رجل مكور مثل قطع ذهبية، وهكذا يتدحرج. أما لامبرت من الدرجة الأولى ونصاب من النصابين، ومع ذلك يحسب نفسه إنساناً مثل أي رجل - أسهم. لامبرت يأخذ الد... ويظن أنه يقوم بفعل الخير. ولا يقع في أنشطتهم غير البائسين، وليس الحقرء. تحت تهديد السلاح. كما هناك من عمليات الانتحار. ويكتب دوستوفسكي. للأسف لم تكن آنا معه فهنا بعض المقاطع التي كان يود أن يعلها الآن.

آه، يجب التفكير بجسدها الرائع الجذاب لي - أنا الإنسان

الشبق، كم يثيرني، وكم اشتاق إليها!

تعب. فتحت النافذة.

رنت أجراس الكنيسة الإغريقية معلنة وقت الفطور، وعامت في الفضاء دن، دن، دن، وارتفع دوي القطار على الخط الحديدي إلى نيكولايف. وطفى على كافة الأصوات، وانطلق صوت دوران آلات المصنع مثابراً مطالباً، فاستلقى دوستوفسكي على الديوان.

لقد فعل خيراً عندما تخلى عن تحرير «المواطن». فإلى أية درجة من البذاعة وصلت طلبات ميشيرسكي!. لقد طلب من دوستوفسكي أن يقيم شبكة جواسيس على الطلاب، مثل تلك الشبكات في الثكنات العسكرية. لتبقى سعيداً وحدك يا صاحب السعادة، أيها الناشر.

لكن دوستوفسكي ظل يتأسف على فراق فارفارا فاسيليفنا تيموفيفا. لقد ربطتها أواصر الصداقة مع دوستوفسكي. كانت تأتمنه على أحلامها، أما هو فكان يحدثها عن الأدب ويقدم لها النصائح. كانت ضعيفة نحيلة وعليلة بوجهها التعب. لقد دخلت المأساة إليها وهي في الثالثة عشرة من عمرها: لقد توفيت والدتها على سرير المرض، تلك الوالدة التي لم تعمل ابنتها سوى الأفكار الطاهرة، وتصديق كل ما يقوله الناس بكل سذاجة.

كان شعرها منفوشاً مثل والدتها، وعيناها رماديتان. وعلى وجهها شامتان، إحداهما على الخد الأيسر والثانية تحت شفرتها السفلى. أما ضعفها فكان يتجلى في حبها للأشياء الجميلة، لذلك كانت تقتصد في طعامها على وجبتي الغداء والعشاء، وكانت فاريا بكل عواطفها تميل إلى الديمقراطيين. لكنها بقيت تعمل في تصحيح مقالات، «المواطن» دون أن تتعمق في قراءتها، أما دوستوفسكي فكان يلومها كثيراً. وكانت تترك كثيراً من الأخطاء في المقالات المذيلة بالأحرف الأولى دون ذكر

الاسم، إذ كانت تعود هذه المقالات إلى عضو مجلس الدولة  
بوييدونوستسيف.

وكانت مجرد قراءة هذه المقالات، والتي يعرف دوستوفسكي  
مقصدتها جيداً، عذاباً مرأً لها.

- هل العدميون قريبون منك؟ - سأل دوستوفسكي.

وبعد أن نظرت فاريا إليه، قالت مؤتمنة له: - نعم.

كثيراً ما كان دوستوفسكي يؤنبها، لكنه سرعان ما يعود  
لمصالحتها. وكانت هي تحبه كإنسان وككاتب.

وهذا ما كان يرضي دوستوفسكي. والآن يتأسف  
دوستوفسكي لأنه لن يلقاها بعد الآن.

لقد كانت فاريا بالنسبة لدوستوفسكي برهاناً على حقيقة  
وصدق الشبيبة. كما كانت ترغب أن ينشر دوستوفسكي أعماله في  
«الوطنيين».

فجأة تذكر دوستوفسكي لا شعورياً كيف أسأوا إليه. لقد  
دفعوا في «البشير الروسي» للكونت ليف تولستوي خمسمئة روبل لكل  
ملزمة من روايته التي لا تتجاوز الخمسين ملزمة. فكيف الأمر بالنسبة  
له، وهو في أمس الحاجة للمال ليرسله إلى أسرته ولشراء حاجياته.



خرج دوستوفسكي إلى الشارع بعد أن شرب كأساً من الشاي.  
وسار على شارع ليتيئني بروسبكت.. حتى وصل إلى منزل  
كرايفسكي، حيث يقيم نيكراسوف. استقبله نيكراسوف بحرارة -

وتحدثنا عن الصحة وعن «ستاريا روسًا» وعن «المراهق»، وفضة سؤال نيكراسوف:

هل أنت بحاجة إلى ذلك المعدن الحصريا فيودور ميخائيلوفيتش؟  
- أنا دائماً بحاجة للمال. - أجاب دوستوفسكي بعد أن خفض نظراته الحائرة.

- أخرج نيكراسوف من درج مكتبه بعض الأوراق المالية.  
- أعطيك أربعمئة روبل، ولو سمحت، أعطني وصلاً بذلك، والبقية بعد أسبوع.

وخرج دوستوفسكي فوراً إلى البريد، وأرسل حوالة بمبلغ قيمته ثلاثمئة روبل إلى «ستاريا روسًا».

(آه كم ستفرح أنيا بذلك) وأبقى معه مئة روبل لحاجياته الضرورية وقرر أن يقتصد في مصروفه الشخصي.

استأجر عربة وانطلق إلى البيت، وفضة تذكر أن اللفائف والتبغ قد نفذ لديه ولا يوجد شيء من الحلويات في البيت - كان دوستوفسكي يحب الحلويات. وأمر سائق العربة بعد أن لمسه على كتفه بالتوجه إلى محل الحلويات على شارع نيفسكي بروسبكت. واستقبلته بكل لطافة في محل الحلويات، بائعة مفنجان أنيقة وعلى خدها غماسة، حتى أنه خجل أن يشتري القليل منها.

«سأشتري للاحتياط» - فكر دوستوفسكي - ويكون هذا أكثر عملياً. فلن اضطرب للانقطاع عن العمل مرة ثانية». وتجمعت العلب بسرعة أمامه لتشكل هرمًا وفيها كانت الفواكه المحلاة

والحلواء، والفطائر والبونبونوركا<sup>1</sup> الأنيقة الغالية الثمن - لم يسأل دوستوفسكي عما تحتويه.

وبعد ذلك ذهب إلى محل التبغ، وتبين أن محل بيع الشاي يقع بالقرب منه، وهنا اقترحت البائعة عليه أن يشتري صفيحة «قهوة برازيلية رائعة» إضافة للشاي، وكان دوستوفسكي يلوح بيده موافقاً على كل ما تفرضه البائعة، واشترى من القهوة ما يكفي لعائلة كبيرة مدة أشهر عديدة بكل ارتياح.

وبعد أن وضع المشتريات في العربة، تذكر دوستوفسكي أنه قد نسي شراء البرتقال، إذ كان يحب تناول البرتقال البارد مع الحلويات أثناء عمله، وهكذا مرّ إلى مخزن بيع الفواكه الأرستقراطي، واشترى إضافة للبرتقال رطلين من العنب وخمسة أرطال من الأجاص من نوع «بير»، وظهرت علائم الرضا عليه.

وعندما خرج دوستوفسكي من المخزن اصطدم بنيكراسوف. ونظر الشاعر إلى السلة المجدولة المليئة بالفواكه، ورفع يده محيياً دوستوفسكي، وتابع طريقه مخلفاً وراءه دوستوفسكي حائراً مرتبكاً كأنه تلميذ مدرسة مذب يقف أمام معلمه.

في الطريق، قام دوستوفسكي بحساب ما صرفه، فتبين أنه لم يقتصد، بل لم يقتصد أبداً.



<sup>1</sup> البونبونوركا: علب كرتونية أنيقة، معقودة بشرائط حريرية، تستعمل للسكاكر والشوكولا (وهي كلمة من أصل فرنسي). م.

بعد أن وصل المنزل، طلب سائق العربة ثلاثة روبلات أجرة له، وقال:

- لقد اجتزت شوارع المدينة معك طوال النهار يا سيدي.

وهنا مدت امرأة شحاذة يدها لدوستوفسكي، وقد رأته حاملاً

كل هذه المشتريات، فأعطاهها قطعة نقود من عشرين كوبيكاً.

وبعد أن رفض دوستوفسكي محفظته في المكتب، تبين أنه لم

يعد يملك الآن سوى خمسة روبلات.

وتذكر أنه لم يتناول شيئاً من الطعام منذ الصباح سوى تلك

الفطيرة مع الشاي. ويبدو أن الطباخة لم تستطع انتظار قدومه فنامت

بعمق على فراشها. وهكذا ارتأى دوستوفسكي أن يتناول غداءه من

الفطائر والحلويات.

الحالة صعبة عندما تكون الأسرة في المصيف.

# ستاريا روسا

كانت أنا غريغوريفنا وابنتها لوبا وابنها فيديا ينتظرون وصول فيودور ميخائيلوفيتش إلى «ستاريا روسا».

تلك المدينة القديمة المشهورة بمياهها المعدنية، حيث كانت الأسرة تعيش في المنزل الصيفي للعقيد «غريبي» الواقع على ضفاف نهر بيريرتس. كان فصل الخريف الماطر يبدو مملاً للغاية، حتى أنهم بدؤوا بإشعال النار في المواقد لتدفئة الغرف.

أما أنا غريغورفنا فكانت منفعلة رغم طبعها الهادئ، إذ لم تتلق أية أخبار من فيودور ميخائيلوفيتش منذ أن استلمت الحوالة في الأسبوع الثالث.

أخيراً وصل دوستوفسكي يوم الأربعاء، وكان المطر يتساقط من انسماء الرصاصية كما ينزل الماء من الغريال، حتى أن سواقي الحديقة المهجورة قد طفحت بالماء.

بينما كانت أنا غريغورفنا تخطط زراً على سوتيان ابنتها لوبا، سمعت فجأة صوت الخادمة تقول «وصل السيد» فرمت أنا ما بيديها وخرجت للقاءه. وهلل الأولاد فرحاً، وركضوا نحو الباب.

ظل فيودور ميخائيلوفيتش واقفاً قرب العربة ممسكاً بمحفظة نقوده، بينما حملت الخادمة الحقيبة وبعض الصرر إلى الداخل.

- آنيا - قال دوستوفسكي خجولاً - هل لديك قليلاً من النقود؟  
- طبعاً - أجابت أنا واحتضنت زوجها، وقبلها دوستوفسكي بشفتيه الباردتين على خدها، ولامس بلحيته المبتلة من ماء المطر خدي آنيا.  
- لماذا لم تكتب؟ لقد ظننت.. ألم تمرض يا فيديا؟

- لا، لم أمرض، لقد حفظني الرب، لكنني أضنيت من التعب في  
بترسبورغ، لقد تعبت طوال الوقت، واشتقت إليكم. دخلوا إلى المنزل.

- سنضع السماوار وسنشرب الشاي في الحال، أتريد أن تأكل  
- سألته أنا غريغوريفنا وهي تنظر إلى عينيه.

- حسنٌ، سأندفأ قليلاً. جلبت بعض الحاجيات، فهنا شيء من  
القهوة والسكاكر، أما ما يخص النقود فأنا أشبه بنبيل إسباني.

- لكنك هل احتفظت بمئة روبل لنفسك؟ أنا لا أسأل لأعرف أين  
صرفت النقود، لكنك هل أبقيت لنفسك ما يكفيك؟

- آوه يا آنيا - أجاب دوستويفسكي مهتاجاً - أنا لا أستطيع حساب  
كل كوبيك.

اقترب الأولاد من والدهم، الذي راح يمسح بكفه شعور رؤوسهم،  
ثم قبلهم. وقال:

- عندما يجهز الشاي، سأقدم لكم أشياء لذيذة طيبة. وقدم لهم  
دوستويفسكي السكاكر والفطائر مع الشاي.

أما أنا غريغوريفنا فراحت تحسب بذهنها كم تساوي هذه  
السكاكر والحلويات في البانينيوركا الأنيقة.

وتحدث دوستويفسكي باختصار (لم يكن يحبذ الحديث عن  
الأعمال أمام الأطفال وعن أعماله، وعن صحته، وعن زيارته  
لينكراسوف، حيث ينشر «المراهق»).

- لقد استقبلني نيكراسوف بحرارة بالغة. إنه إنسان رائع، أعطاني  
المال. وكما تعرفين يا آنيا أنه من الصعب الحصول على المال مسبقاً.  
لكن نيكراسوف منحها دون أن يوقعني في الحرج، وأخرج

دوستويفسكي علبة السجائر وأشعل واحدة - على فكرة - قال دوستويفسكي مسروراً - لقد جلبت كمية من القهوة، قهوة ممتازة. لقد أكدت لي السيدة البائعة أن القهوة برازيلية، فقررت أن أشتري كمية أكبر للاحتياط، ألا تلاحظين كم أنا اقتصادي.

لم تستطع أنا غريغوريفنا الحفاظ على حالتها فراحت تضحك.

- لقد جلبت ما يكفينا لمدة عام كامل.

- وإذا حافظت على عاداتك القديمة في إضافة الهيل إلى القهوة،

فستكفي الكمية لعامين كاملين.

توردت أنا غريغوريفنا، ولم تدر بما تجيب.

أصبح الحديث مملأ للأطفال. ولهذا راحوا يرفسون بعضهم بعضاً

بأرجلهم، وكانت لوبا تحاول ضرب فيديا البارد الهادئ بقوة أكثر.

وخلف النافذة انهمر المطر بشدة، بينما راح كلب يعوي في مكان

ما. كان دوستويفسكي يحب الخريف وأمطاره وخضاره ولونه المتكدر

المعتم، وأشجاره العارية.

تأججت لديه الآن في هذا الجو العائلي روح الكتابة، فأراد أن يبدأ.

- أنيا - قال مخاطباً زوجته، التي جلبت الشاي مع شيء من المربى -

لم تتعبني اليوم، أليس كذلك؟ - أتمنى لو تكتبين لي فصلاً من

«المراهق»، فالمطر ينهمر في الخارج والمنزل دافئ. لقد قرأت مقالة في

إحدى المجلات لعالم في الطب، يؤكد فيها، أن الدفء يحافظ على

القدرات العقلية.

أظن، ليس من السهل أن يكون المرء في الشارع الآن، وفي هذا

الجو. هذا ما يتراءى لي. أكاد ألمسه.

سائراً في الشوارع بلا هدف، وقدماه مبتلتان، وعلى رأسه قبعة  
(من الضروري أن تكون قبعته مدعوكة وأطرافها مهتدلة) ويسيل المطر  
وسخاً من أطرافها. فقبعته مهترئة بالية.

- طبعاً لم أتعب يا فيديا.

وأزالت أنا غريغوريفنا الباب من على الشموع (كان  
دوستويفسكي يكره المصابيح) ووضعت الكرسي خلف الطاولة، ثم  
كدست الأوراق أمامها، وتهيأت للكتابة.

اقترب دوستويفسكي من النافذة وأزاح عنها الستارة، ثم لامس  
بجبينه الزجاج المتعرق. لم يكن يرى شيئاً خلف النافذة، لكنه كان  
يتخيل بشكل واضح أوراق الأشجار الحزينة الملقاة على الحشائش المبتلة  
الصفراء بعد العاصفة.

- فيديا - خاطبته أنا غريغوريفنا - ابتعد دوستويفسكي عن  
النافذة وأشعل سيجارة (كان يلف السجائر بنفسه).

- أتعرفين يا أنيا ما هو أشد أنواع العذاب رعباً؟

- لا، لا أعرف!

- سأقول لك، إن أشد أنواع العذاب، عندما يحلقون شعر  
رأسك وينزلون الماء البارد عليه قطرة قطرة. يقولون أن المرء يفقد عقله  
من جراء ذلك.

- آه يا فيديا! لماذا نتحدث بمثل هذه الأشياء المرعبة. وارتعشت أنا.

- آه منك، ها أنت قد فزعت. هيا اكتبي.

رغم أن أنا كانت ناسخة ممتازة، غير أنها، بالكاد كانت تلحق  
كتابة ما ينطق به دوستويفسكي. فكانت تسأله عن بعض الجمل التي فاتتها.

- افهمي يا أنيا ، إنك تقطعين سلسلة أفكارى بأسئلتك هذه. لقد فكرت بذلك جيداً ، كانت الصورة واضحة أمام عيني. أما الآن فقد انقطع الخيط من فضلك لا تكرري ذلك مرة أخرى.  
لم تجب أنا بشيء ، بل كتبت بسرعة الجملة التي كررها دوستوفسكي.

رشف دوستوفسكي قليلاً من الشاي ، وأشعل سيجارة ، وركز بنظراته المتوترة إلى نقطة محددة دون أن يزيح عنها ، كما كان يحدث معه في السابق.

كانت أنا تهابه في مثل هذه اللحظات ، تخاف من وجهه المضاء بضوء خفي داخلي ، المنقطع عن العالم الخارجي ، من تجاعيد وجهه المقروءة بشكل واضح على جبينه العالي. أحياناً كانت أنا تظن أنه أصبح إنساناً آخر ، مجهولاً وليس زوجها الذي تعده. وكان قلبها يرتعش عندما ينطلق دوستوفسكي بصوته المليء بالفضب أحياناً ، المليء بالحزن أحياناً أخرى.

وعندما توقف دوستوفسكي فجأة عن إملاء أنا ، بدا صوت المطر الرتيب مسموعاً بشكل خاص. مضت عدة دقائق حتى بدأ دوستوفسكي إملاء أنا من جديد. وكان ينقطع دوستوفسكي أحياناً عن العمل ويسأل.

- هل يبدو ذلك موقفاً يا أنيا؟ وترفع أنا عينيها عن الأوراق لحظة وتقول:

- رائع ، وصادق جداً.

وتفترشفاته عن ابتسامة صغيرة.

- حسنٌ ، ألم تتعبي؟

كانت عينا أنا تكاد تغفو ، لكنها كانت تؤكد بصوتها اليقظ.

- ماذا تقول؟ استطيع الكتابة حتى الصباح.  
وتمتلئ الأوراق بالإشارات والعلامات، ويشكل الشمع المذاب  
أشكالاً غريبة عجيبة على الشمعدان.

- هذا يكفي - قال دوستويفسكي أخيراً، اذهبي واستريحي،  
فأنا، أنا إنسان أناني، نعم، نعم أناني أنا يا أنيا، واقترب من زوجته  
ووضع يده على كتفها وقبلها على خدها ثم قبل عينها - اذهبي - كرر  
ذلك منفعلاً - اذهبي يا أنيا - يجب أن أكتب مقالة للمجلة.

تنفست الزوجة الصعداء وخرجت متباطئة، ثم جلس  
دوستويفسكي خلف الطاولة وأخذ ورقة، وراح يرسم عليها باباً قوطياً،  
وارتسمت على وجهه علامات الملل والشر. لم تكن لديه الرغبة في كتابة  
هذه المقالة.

وبشكل لا شعوري، امتدت يده، وتذوق طعم المريى، ثم جلس  
والتهم كل ما في الصحن، وضحك قليلاً. «خلط الحلومع المر»، وأخذ  
الريشة وبدأ يكتب بسرعة حتى انبج الصبح.



بيت دوستويفسكي في ستاريا روسا

# الكاتب وأحد الوجهاء

تناول بوييدونوستسييف<sup>1</sup> طعامه وارتدى سترة منزلة بنية وحذاء طرياً، بعدما عاد من محله، ثم تناول من فوق طاولته آخر عدد من «البشير الروسي» واستلقى على الديوان. فبدأ بوجهه النحيل، الضعيف، وأنفه المعقوف وعينه الرماديتين خلف نظارته، أشبه بطير من الطيور الجارحة الكبيرة.

وكان بوييدونوستسييف، المحامي الواسع الاطلاع والعالم بقوانين وحقوق الكنيسة، قد كرّس كل نشاطه لخدمة ثلاثة أهداف «السلطة المستبدة، الشعبية، والكنيسة».

وبكل ارتياح قرأ قسطنطين بيتروفيتش بوييدونوستسييف مقالة كاتكوف<sup>2</sup> عن بسمارك، إذ كان من المعجبين بشخصية بسمارك، وبرأيه كان المستشار بسمارك قائداً فذاً، ورجل دولة حقيقي. فكل أوروبا الغربية بملوكها ومجالس نوابها ووزرائها لم تكن تقوم بفعل أي شيء، دون سابق إخطار للمستشار الألماني، لقد اكتنزت إمبراطورية فريدريك بارباروساً الألمانية في القرون الوسطى باللحم من جديد وبعد مئات السنين، وكل ذلك يعود لبسمارك المستشار الألماني، وكانت

---

<sup>1</sup> بوييدونوستسييف. ن (1828-1907) - عضو مجلس الدولة ومربي الكسندر الثالث. وكان النائب العام لمجمع الكنائس من عام 1880 إلى 1905. وكان له تأثير كبير على الإمبراطور ألكسندر الأول وألكسندر الثالث ونيكولاي الثاني وكان من أشد أنصار السلطة الاستبدادية.

<sup>2</sup> كاتكوف. م. ن. (1810-1886) الناشر للمصحفة الرجعية «الاستثمارات المسكوفية» ومجلة «البشير الروسي» حيث نشر كبار الكتاب مؤلفاتهم فيها، وكصحفي، خاض نضالاً قوياً ضد الأفكار الاجتماعية المتقدمة.

فرنسا والنمسا الصديقتان، راكعتين عند أقدامه. وكان - فيكتور  
عمانويل - يرجف أمام عظمته والعرش المقدس يعانده بوهن وانكسار، أما  
إنكلترا فكانت تنظر إليه بدعر وحذر. وأنداك كانت أشباح الثورة  
الليبرالية قد طردت من أوروبا لسنين طويلة.

من جهة أولى، كان بوبيدونوستسيف ينظر إلى كل ذلك بارتياح  
عظيم، ومن جهة أخرى أن وجود إمبراطورية ألمانية قوية على حدود روسيا  
يدعو لأخذ الحيطة والحذر، وهذا ما يتحدث عنه كاتكوف في مقاله  
- لكن بطريقة ليست مباشرة، إنه ذكي وشاطر.

وأخبره الحاجب عن وصول السيد دوستوفسكي.

ارتسمت على وجهه علائم السرور، إذ كان يتباهى بصداقته مع  
الكاتب الشهير، فمن خلاله، كان يحاول تمرير أفكاره في «يوميات  
كاتب» عن الأحداث المعاصرة. حقيقة الأمر أن هذه الأفكار، كانت  
تأخذ صيغاً أخرى عند الكاتب وتخرج بأشكال أخرى، ومع ذلك كان  
فيها شيء من قسطنطين بيتروفيتش.

ونفض قسطنطين بيتروفيتش بعزم الشباب مآداً يده لمصافحة  
دوستوفسكي.

- كم أنا سعيد لقدومك يا فيودور ميخائيلوفيتش، فمذ لحظات  
قرأت مقالة كاتكوف في «البشير الروسي» وفكرت بك، أنت رجل ابن  
حلال. كيف حال الزوجة والأطفال. وبقي سؤال واحد، هل أنت جائع. أنا  
أعرف أنك ما زلت في حالة أرمل مهجور.

- لقد قرأت مقالة كاتكوف - أجاب دوستوفسكي وهو يرد  
على التحية - أما ما يخص أعماله الأدبية فأنا مشغول الآن بكتابة

«المراهق» وأشعر بالارتياح. وسأبقى مع الوطن، دائماً، وأنا غريغوريفنا والأولاد يرسلون إليكم تحياتهم واحترامهم، أما ما يخص الشاي فلن أرفضه.

ورن قسطنطين بيتروفيتش الجرس، وأعطى أمره (لم يكن يلاحظ وجود الخدم أبداً) وهو ينظر من فوق رأس الحاجب الذي دخل، فأمره بتحضير العشاء والشاي، وبسخين زجاجة نبيذ أحمر. ثم حضن دوستوفسكي من كتفيه، وأجلسه على الديوان.

- لماذا غيرت «البشير الروسي»؟

- غيرت، كيف؟! أجاب دوستوفسكي متحفظاً.

- بكل بساطة. لقد سمعت أنك رفضت نشر «المراهق» عند كاتكوف وأعطيت الرواية لنيكراسوف، ظهرت على وجه دوستوفسكي بعض البقع الحمراء.

- لا. أن كاتكوف هو الذي رفض نشر الرواية. أما «المذكرات الوطنية»! فلقد استعدتها وشكراً لنيكولاى ألكسيفيتش. أعتقد أنه قد فعل خيراً.

- خيراً! هم يسخرون منك، فسالتيكوف - شيدرين ينشر كثيراً من الدناءات عنك.. أما أنت فتقدم له المخطوطة... إن في ذلك لشيء من الغرابة يا فيودور ميخائيلوفيتش.. أنا أقول ذلك كصديق لك، غريب... وبسط يده.

- أنا إنسان روسي وأعمل شيئاً واحداً - الكتابة - أقدم خدمة واحدة للشعب. أما ما يتعلق بنيكراسوف فأنا أقدره رغم أن طرقنا التي سلكناها مختلفة عن بعضها بعضاً. أقدره بالضبط، يا قسطنطين

بيتروفيتش. فأنا أرى الضوء في مجلة نيكولاي ألكسيفيتش وأعتقد  
- وكاد دوستوفسكي أن يصرخ - إنني أشعر بارتياح كبير لنشر روايتي  
عندهم.

ومدّ قسطنطين بيتروفيتش يديه مهدئاً وقال.

- آه منك كم أنت عصبي... فأنا أكلمك كصديق، أما أنت  
فتصرخ وكما تعرف إن كاتكوف يحترمك جداً، بل يحترمك بإجلال.  
- وأنا أحترمه. أجاب دوستوفسكي بتلكؤ. وتنفس الصعداء...  
هناك كثير من الحكايا تدور حول «البشير».

- الحكايا في كل مكان - أجاب قسطنطين بيتروفيتش وكأنه  
يقدم نصيحة، وهو ينظر إلى دوستوفسكي، ويراقبه كيف يدخل  
بشراة «مدافعه» الغليظة - إن سمو ولي العهد ألكسندر  
أليكسندرفيتش سيكون سعيداً إذا قمت بزيارة لسموه، إذا سمحت يا  
فيودور ميخائيلوفيتش.

- لم أعتد على التحدث مع الشخصيات القيصرية - قال  
دوستوفسكي ضاحكاً، ثم أضاف: لقد عرفت من دليل روسي قديم  
إنني ما زلت حتى الآن مراقباً من البوليس السري. هل تفهمني. شيء  
غريب. فالليبراليون يشيعون بكل عداة أنني بعث نفسي - كما يقولون -  
للحكومة، والجنדרما يراقبون كل خطوة من خطواتي. إذاً كيف يوافق  
سموه على التحدث مع مثل هذا المجرم؟

وشعر قسطنطين بيتروفيتش بالحيرة والارتباك.

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ يبدو أن هناك شيئاً من عدم التفاهم.  
- الذي يمتد لعشر سنوات - وابتسم دوستوفسكي.

- لابد ، بل عليّ أن أكلم رئيس الجندرما - أقول لك كلمة شرف  
يا فيودور ميخائيلوفيتش إنه في أقرب وقت سيرفع اسمكم من المراقبة ،  
هذا إذا كنت تحت المراقبة فعلاً. كان التناقض واضحاً فيما بينهما .  
وأدار قسطنطين بيتروفيتش دفة الحديث عن بسمارك ، وعن الوضع  
في البلقان وعن دعم الحكومة للموائى السلافية ، وكان دوستوفسكي  
يصفي بغير انتباه.

وأخيراً جاء الخادم وأخبر أن الطعام جاهز على المائدة.  
حتى العشاء الدسم لم يستطع تصفية مزاج دوستوفسكي العكر.  
وفجأة سأل - دوستوفسكي:

- أنت يا قسطنطين بيتروفيتش ، العضو في مجلس الدولة والمرتبط  
بأعمال الكنيسة الأرثوذكسية ، هل تؤمن بعقيدة الكنيسة؟  
- دون أدنى شك أيها الصديق العزيز. إن ما تؤكده الكنيسة هو  
الحقيقة ، ولا يملك أحد منا الحق في الشك بذلك. إن أدنى شك في ذلك  
سيولد النقد. ويكفي أن نشك بشيء واحد حتى ينهار النظام بأكمله.  
- أما أنا - اعترف دوستوفسكي - أشك أحياناً في ذلك. لا أريد أن  
أفعل ذلك ، لكن هناك شيء بعد الموت. أو مثلاً.. إذا تبين فجأة أنه لا  
يوجد هناك إله ولا نعيم ولا عذاب أبدي... مجرد فراغ لا غير.. وانظر من  
جهة أخرى فهناك الديانة المسيحية والإسلامية واليهودية ، والبوذية وعدد  
من الطوائف الأخرى ، وكل من هذه الأديان يؤكد أن عقيدته هي  
الأصح. أتذكر أحد العملاء ، كان رجلاً قديساً وإنساناً طاهراً قرأ عشر  
آيات وعدة كتب من علم اللاهوت ثم صرخ «أؤمن لأن ذلك سخيف جداً»  
وهنا تكمن فكرة معينة. فكر بذلك قليلاً يا قسطنطين بيتروفيتش ،

وسقط المنديل من يد قسطنطين بيتروفيتش وظهرت على وجهه علائم  
الربع والهلح، ثم سأل:

- هل أنت جاد فيما تقول يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ أنت الذي تعتبره

الكنيسة الأرثوذكسية نموذجاً يحتذى به، ومشعلاً لفكرها؟!

- لكن هل تقرّ فخامتكم أن فيما قلته شيء من المعنى أو الفائدة؟

وإذا سمحت سعادتك فأرجو أن تقرّ السيد ليسكوف، آ. أن السيد

ليسكوف «قد التهم كلباً داخل الكنيسة»<sup>1</sup> نطق دوستويفسكي ذلك

بارتياح خاص - كان يعشق تراتيل الكورس، لكنه تداعى في إيمانه...

تذبذب. أما في بيت البروفيسور غرادوفسكي، فالطاولات تتراكم من

تأثير قوة شيطانية لديه، مع أن الكنيسة تحرم استحضار الأرواح، نعم

نحرمها.

- ماذا تقصد من وراء ذلك يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ - قال

قسطنطين بيتروفيتش ذلك وقد أحسّ بالانفعال الشديد ومن أجل أي شيء

تذكر ذلك؟

وأنت يا قسطنطين بيتروفيتش تدعو للإيمان بتعاليم الكنيسة،

وكل شيء تؤكده وتقره الكنيسة يصبح مقدساً بالنسبة لك، أليس

كذلك؟

- اسمح لي أن أذكر.. واقعة حقيقية:

ففي عهد القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش، اعتبرت الكنيسة

المقدسة وعلى رأسها البطريرك، رفات الأميرة القديسة آنا

كاشينسكيا، مقدساً، أبدأً وقررت تقديم الصلوات له. وفعلاً حدثت

<sup>1</sup> هذا يعني أنه يتكلم كثيراً وبصوت عال، يشبه النباح - م.

معجزات آنذاك أمام رفاتها، حتى أن القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش وضع رفاتها المقدس في مزهرية فضية أمام وجهاء مدينة كاميشن. وفي عهد ابنه القيصر فيودور ميخائيلوفيتش، ارتابت الكنيسة المقدسة وعلى رأسها البطريرك في قدسية رفات الأميرة أنا، وأمر القيصر بإيقاف تقديم الصلوات للقديسة أنا وحرمةها.

- من أجل ما ذكرته لك سابقاً. فإذا كان المؤمنون الصالحون يقومون بمثل هذه الأفعال، فماذا نتظر في المستقبل؟ كفر وبلبله عالمية. فعندنا يخافون من الملحدين وأنا لا أعرف من هو أشد ضرراً من الآخر: بابا روما أم باكونين.

فما رأيك يا قسطنطين بيتروفيتش؟ أي من الكنيستين المقدستين على حق؟ ففي كلا الحالتين يوجد إقرار كنائسي وبطريركي.. وهكذا أستطيع أن أقول، إذا كان على الإنسان أن يؤمن فعليه ألا يؤمن بالتعليمات والمعتقدات، بل أن يؤمن بكل بساطة، أن يؤمن بروحه، أن يؤمن بسخافة، لكن مع ذلك عليه أن يؤمن مثل إيمان الأب ليسكوفسكي. هل تذكر ذلك الأب القروي العجوز. كان طاهر الروح، حتى أنه عندما كان يذهب إلى الحقول ليدعو الله أن يبعث المطر، كان يأخذ مظلته معه<sup>1</sup>، هذا هو الإيمان الصحيح، حتى الرسول بطرس نفسه يحسده على مثل هذا الإيمان، بمثل هذا الإيمان تستطيع أن تهز الجبال. لكن إيمانك يا قسطنطين بيتروفيتش، وسامحني على كلامي فهو إيمان في البيزة الرسمية وبأزرار مجلس الدولة، وإيمان مربي داني العهد ألكسندر أليكسندروفيتش.

<sup>1</sup> المتصور، أنه من شدة إيمانه لابد أن الله سيستجيب دعواته ويبعث بالمطر، ولهذا كان يأخذ معه المظلة. م.

وضحك فيودور ميخائيلوفيتش بعد أن رأى الذعر الحقيقي في عيني  
قسطنطين بيتروفيتش الواسعتين، فقال ضاحكاً:

- أنا أمزح، أمزح، هذا ما أراه، ما تخيلته، والأصح ما لفقته.

عندئذٍ تنفس قسطنطين بيتروفيتش الصعداء وقال:

- لقد ظننت أنك جاد في حديثك يا صديقي الغالي، وتابع بعد أن  
ارتاحت نفسه قليلاً:

- لا يجوز ذلك. مع أنه يمكن أن نعذر كاتباً لمثل هذه الأفكار،

ومع ذلك فأنصحك ألا تسيء استخدام هذه الأفكار، فمنها يلامس  
الصقيع الجلد<sup>1</sup>.

واتجهت نظراته إلى أيقونة القديس القيصر قسطنطين المعلقة في  
الزاوية الحمراء.

كانت الأيقونة قيمة جداً لرسام قديم في إطار ذهبي.



---

<sup>1</sup> إشارة للنفي إلى سيبيريا. م.

# ناستينكا

أحسّ دوستوفسكي بالكآبة المعروفة لديه سابقاً، قد استولت عليه بعدما عاد من زيارة قسطنطين بيتروفيتش، نعم استولت عليه بالضبط...: ألم في القلب، الهواء لا يكفي الرئتين، والقلب ينبض بشدة، وألم في الجانب الأيمن من رأسه.

مضى سائراً لا يلاحظ الشوارع والمارين. واعتلت المدينة سماء رمادية اللون غائمة، هبت الريح وشرعت السماء بالمطر، وعلى الضفاف كانت المصايح القلائل ترسل أنوارها. توقف دوستوفسكي واستند بمرفقيه إلى الطنف البازلتي وراح ينظر إلى المياه السوداء اللون متحسناً رطوبتها. وصاح دوستوفسكي:

- القانونيون، المنافقون - وبصق في الماء.

مرّ بالقرب منه عسكريان يرنان بمهمازيهما، ونظرا بحيرة إلى السيد الواقف هناك، أما دوستوفسكي فكان يردد بعض الكلمات غير المفهومة.

- سراقون، أرواح شريرة خبيثة، الشنيع في كل مكان... يريدون أن يكونوا ظاهرين بدون آثام. لكن أرواحهم مليئة بالدناءة.

ومرت من قربه امرأة متردية معطفاً خفيفاً وحقيقية نسائية على يدها. فجأة أبطأت المرأة من خطواتها، ثم عادت إلى الوراء، ووقفت قرب دوستوفسكي، وراحت تنظر إلى النهر مثله...

- الحياة اللعينة - قالت بصوت هش مقطوع - مطر، لقد ابتللت كلياً ويبدو أنني سأنام هذه الليلة بدون عشاء، وستلغني سيدة البيت، فهي لا تجب عودتي بدون زائر كريم.

بدا وجهها الأسمر من خلال الضباب والمطر مخضراً، وعيناها  
تغرقان في محجريهما تارة، وتبرزان تارة أخرى.

- ما اسمك؟ سأل دوستوفسكي.

- أناستاسييا - أجابت المرأة - ويمكن أن تدعوني ناستيا، وإذا  
شئت بشكل آخر ناستينكا.. أما لقبى فلقب كلاب مثل مهنتي.

وهنا تذكر دوستوفسكي بطة «الليالي البيضاء»، الملقبة بهذا  
الاسم.

- هل تسكنين بعيداً من هنا؟ سأل دوستوفسكي بشكل لا إرادي.

يبدو أن المرأة قد فرحت بسؤاله، فاقتربت منه حتى لامست  
بكتفها كتفه وقالت:

- لنذهب إلى بيتي يا حبيبي. فاليبت ليس بعيداً - بل هنا بالقرب،

لكن يتوجب علينا أولاً أن نأكل شيئاً وتدفأً بقليل من الفودكا إذا  
أمكن... وعندما لاحظت صمته المطبق، أسرعرت في حديثها تحنّه بحماس  
على الذهاب معها.

- أنا لست كالبقية، فأنا من الحاجة... ووالدتي ملاكة في

سيريوخوف لكنها مريضة، وهناك شقيقتي، لقد أنهيت دراسة الصف  
الثاني، وبعد ذلك خدمت عند المدام، ثم طردوني - كانت عيناها  
السوداوان الجميلتان تتظران برجاء، أنا نشيطة وأستطيع الغناء إذا أردت،  
ولا آخذ أجراً باهظاً، أوافق على ما تترحم به... أقسم بالله أنني لم أبلل  
ريقي طوال اليوم.

- لا حاجة لكل هذا الكلام.. والأفضل أن تستدعي عربة - أجاب

دوستوفسكي بفتور.

- ها هو فانكا. وساط الحوذني فرسه الهزيلة ، واقترب منهما .  
وأمسكت ناستيا دوستويفسكي من يده وقادته إلى داخل العربية ،  
وكانت العربية مسقوفة بجلد مشدود.

- اسمح أن نذهب أولاً إلى الحانة... وأوماً دوستويفسكي برأسه  
موافقاً وتحسس محفظته في داخل جيبه ، وأخرج روبلاً فضياً منها وقدمه  
لناستيا وسأل:

- ألا يكفي؟

- الأسعار ترتفع عند المساء ، أضف خمسين كوبيكاً فيكون  
التمام. فناولها دوستويفسكي روبلاً آخر.

- تبدو رجلاً حقيقياً من أول نظرة ، رجلاً متعلماً وكادت ناستيا  
تصرخ بحماس ، وارتمت بخدها على شفثيه ففاحت منها رائحة البودرة  
الرخيصة ، وزكمت أنف دوستويفسكي.

لم تتوقف ناستيا عن الحديث طوال الوقت في الشارع أو في الحانة ،  
أما دوستويفسكي فلم يكن مصغياً إليها. واشترت ناستيا زجاجة فودكا  
وخبزاً فرنسياً وسجقاً وسمك الرنجة ، وقالت بشكل عملي:

- روبل وثمانية كوبيكات ، وها هي البقية.

- حسنٌ - أجاب دوستويفسكي بصوت متكسر - هل نصل  
البيت قريباً؟

- خلال ثانية.

ووصلا أخيراً إلى المنزل الذي تقيم فيه ناستيا ، كان منزلاً كبيراً  
مؤلفاً من ثلاثة طوابق ، وكانت رائحة القطط تفوح على الدرجات  
المتعرجة المنزقة. وقادت ناستيا دوستويفسكي بيدها الرطبة الحارة.

«لماذا أتيت إلى هنا؟ - فكر الكاتب - ربما كان من الأفضل أن أغادر هذا المنزل فوراً إلى بيتي... أن أعطيها النقود وأذهب... لكن ماذا سأفعل في البيت؟ فالعائلة في المصيف وستتهشني الكآبة في البيت، سأجلس وأشرب الشاي عند ناستيا على الأقل... قبل قليل شربت الشاي مع قداسته والآن مع عاهرة.

- لقد وصلنا - قالت ناستيا، وقرعت جرس الباب بعد أن تحسسته في الظلام. وعم السكون بعد رنين الجرس، وانبعث صوت من الداخل.

- من هناك؟

- هذا أنا يا فارفارا ألكسيفنا مع زائر طيب. وانفتح الباب وظهرت امرأة على العتبة تمسك شمعة صنعت من الشحم، ملتحفة بغطاء وسخ من الشيت. كان وجهها عريضاً مترهلاً، وأنفها أفطس الشكل وعيناها رماديتين شقيتين، أما ذقتها فلا شكل له.

- نحن سعداء دائماً باستقبال الزوار الطيبين. ادخل، تفضل أيها السيد فالطقس بارد في الخارج.

وزكمت أنف دوستويفسكي رائحة، الخرق وشيء ما حامض عفن. فابتسم بحزن وقال:  
- فرصة سعيدة للتعرف عليك.

كانت غرفة ناستيا تقع إلى جوار المطبخ مباشرة بطول أربعة أمتار وبعرض ثلاثة. والسرير انتصب قرب الجدار، مغطى بغطاء صنع من الخرق البالية، وستارة حمراء من الشيب علقمت على النافذة، أما الطاولة فكانت قرب النافذة وعليها كأس وفنجان قد انكسرت مسكته. وهناك بعض الصحون، ومزهريّة زرقاء صنعت من الزجاج الرخيص مع

بعض قطع السكر. وعلى الصوان. مرآة وأحمر الشفاه، وبطاقة عليها صورة حمامتين صغيرتين في إطار من الصدف. وصورة رخيصة للقيصر ألكسندر الثاني في لباس الفروسية، وفوق الصورة على الجدار علقت أيقونة نيكولاى المحبوب، ووراء الأيقونة وردتان ورقيتان. كان المكان ضيقاً للغاية.

- أرجو المَعذرة - قالت الفتاة، الفُقر! وكانت الشمعة تطلق الدخان فأزالت ناستيا الهباب، فأصبح الضوء مستقيماً.

خلع دوستويفسكي معطفه، فأخذته الفتاة باعْتناء وعلقته على المسمار الذي يحل محل العِلاقة.

أما ناستيا فكانت في فستان سماوي مطرز عند الياقة ببعض القطع البلورية الروسية. كانت تبدو شابة هيفاء رشيقة.. وعلى عنقها، خرز بألوان مختلفة متعددة.

استطاع دوستويفسكي الآن أن يتبين معالم وجهها المتطاوَل وعينيها العسليتين، وشعرها الأسود الكث الجميل، وعمرها يقدر بعشرين أو اثنين وعشرين عاماً.

- هل تعبدن الله دائماً يا ناستيا؟ - سأل دوستويفسكي، فأجابته ناستيا:

- كيف لا؟ فأنا أرثوذكسية وأذهب للصلاة مع الأب في الكنيسة. واعتلى صوت بكاء طفل خلف الحائط، وصوت أرجوحة تهتز، قالت ناستيا:

- هذه طفلة ابنة شقيقة صاحبة البيت، فلا يوجد حليب في صدر كاتيا والطفلة جائعة.

ووضعت ناستيا المأكولات والمقبلات بنشاط ووزعتها على الصحون  
- السجق، السمك، الخيار وقطع الخبز. واستأذنت من دوستوفسكي قائلة.

- اسمح لي أن أدعو سيدة البيت. فوافق دوستوفسكي.

- شكراً لك.. كيف ينادونك رسمياً؟

- فيودور ميخائيلوفيتش.

- وبأي حقل تعمل؟

- في الكتابة.

لقد توقعت ذلك، فأما أن تكون موظفاً، أو معلماً. ودخلت صاحبة  
البيت حاملة السماوار المليء بالماء المغلي. وقالت:

- لن تستطيع فتاة ربط ضفيرة شعرها المقصوص حتى يكون  
السماوار جاهزاً. تفضلوا واشربوا الشاي، لقد غليت شاياً صينياً زهرياً.

- تفضلي واجلسي معنا وشاركينا يا فارفارا ألكسيفنا.

وساند دوستوفسكي الدعوة موافقاً بهز رأسه.

- أنا آثمة، وأحب أن أولع نفسي بالبونش<sup>1</sup>.

جلست وصببت الشاي وأضافت الفودكا والسكر، وصارت  
تدريجياً تشرب وتتجشأ. وهجمت ناستيا على الطعام بعد أن شربت القدح  
الثالث.

- صعب على الفتاة أن تعيش بدون شاب فتي - قالت سيدة البيت -  
صدقني أيها السيد فرغم أنني قد اعتدت على رؤيتهن، غير أنني أحس  
بوخزة في القلب. فلدي الآن بنت شقيقتي... التي أخفقت في حياتها، وتعيش  
الآن مع طفلتها وتتعذب. شريت ما في القدح ثم خرجت.

---

<sup>1</sup> كلمة إنكليزية، تعني: مشروباً روحياً. وهو عبارة عن كوكتيل من الويسكي  
والكونياك والروم، مغلي مع السكر وعصير الليمون أو بعض الفواكه الأخرى. م.

- شكراً على الضيافة.

أكلت ناستيا آخر قطعة من السجق، ونظرت بعينين مخمورتين على الضيف. أما هو فقد جلس بوجه الرمادي، ضجراً يدخن سيجارته.

- هل تريد أن تستريح يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ - صحا دوستويفسكي في تلك اللحظة.

- أستريح؟ - كرر دوستويفسكي السؤال - وأنت (وأشار برأسه إلى أيقونة نيكولاي) ألا تخافينه؟

- ولماذا؟ إنني أدير وجهه نحو الجدار، عندما يأتيني الزوار. وارتعش جسد فيودور ميخائيلوفيتش: وجهه إلى الجدار! وأحاط ركبتيه بيديه وأوطأ برأسه فبرز جبينه المتورم بوضوح تحت ضوء الشمعة. اقتربت ناستيا من الأيقونة.

لا تلمسيها: قال دوستويفسكي بصوت خافت، كاد يكون همساً. - كما تريد يا فيودور ميخائيلوفيتش. لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل. وأحسّت فجأة بالخجل، وأدركت أن هذا الزائر ليس كبقية الزوار: حتى أنها شعرت لو طلب منها أن تتعري أمامه لما استطاعت.

واعتلى صوت بكاء الطفل في الغرفة المجاورة، وسمع صوت امرأة تقول: «اسكت أيها المكروه، يا إلهي». وبعد ذلك سمع صوت لطمة خفيفة وزعيق طفل حاد.

ونفض دوستويفسكي عن الكرسي وقال:

- مريها أن تترك الطفلة، هل يجوز ذلك؟ وأخرج المحفظة من جيبه وأخرج قطعة ورقية وأخرى فضية وراح يحشرها في يد ناستيا، وهو يقول:

- أعطيتها، أعطيتها هذه النقود، قولي لها ألا تتجرأ وتضرب

الطفلة ثانية.

- لماذا كل هذه النقود لها. سألت الفتاة مندهشة.

- أعطيتها، أعطيتها! - كرر دوستوفسكي.

وظلت ناستيا في مكانها واقفة دون أن تتحرك. عندئذ أخذ دوستوفسكي ينفذ كل ما في محفظته على الطاولة، فكان هناك روبل ذهبي وثلاثة روبلات فضية.

- هذا لك، لكن أسكتوا بكاء الطفلة. وأزبدت شفتي دوستوفسكي، وبدأ يخبط برجليه.

- اذهبي، اذهبي في الحال.

فصفت ناستيا بكفيها وخرجت مسرعة إلى المر.

بدأ دوستوفسكي يتنفس بصعوبة، وقد انهارت قواه فجلس على السرير.

- كل شيء إلا النوبة. علي أن أستلقي، وأنا أقلع عن التفكير بأي شيء. وسمع بعض الأصوات الآتية من الغرفة المجاورة، وسرعان ما كفت الطفلة عن البكاء.

وعندما عادت ناستيا إلى الغرفة، وجدت دوستوفسكي مضطجعا على السرير... رأسه مائل إلى الجانب، وفمه معوج وعيناه مفتوحتان بارزتان، لا يرى فيهما سوى البياض.

أما جسده فكان يرتعش في تشنيج من نوبة الصرع. وصرخت ناستيا مرتعبة، ونادت صاحبة البيت.

عندما أفاق دوستوفسكي رأى ناستيا منحنية عليه، وقد وضعت قطعة قماش مبللة بالماء على جبينه. وباقة قميصه مفتوحة، ورجلاه بدون حذاء.

- ما بك؟ لقد خفت - قالت ناستيا بكل بساطة - ظننت أنك ستموت دون قصد.

- هل كنت تأسفين علي؟ سأل دوستويفسكي بصعوبة.

- طبعاً. - أجابت ناستيا بكل صدق - ، فأنت سيد طيب لكنك بائس.

- لقد دعنتي ابنة الشارع بالبائس. كيف عرفت ذلك. صحيح فأنا سافل وبائس.

- هذه نقودك خذها - قالت ناستيا - فأنا لن آخذها. لم تكن في حالتك الطبيعية ، حينما أعطيتني النقود.

- لا ، لا. خذها وتقاسيما معهم. كان يتكلم وكأنه يهذي.

- لكن أرجو أن تذكريني ، من الضروري أن تذكرني البائس فيودور. والآن أعطني حذائي.

ودون أن تنبس الفتاة بكلمة ، ناولته الحذاء وساعدته في ارتداء المعطف فقط. وأتت بالشمعة ، وأضاءت له الممشى.

لم يتبادلا أية كلمة أخرى. وعندما هبط دوستويفسكي إلى أسفل الدرج، القذر، وضعت ناستيا الشمعة على الدرج وركضت نحوه وأمسكت رأسه بيديها وشدته إلى صدرها بقوة ومن خلال دموعها، قالت بشكل عاصف.

- مسكين أنت يا عزيزي.



ها هو الشارع من جديد.

لم يعد الشارع مظلماً ، بل رمادي اللون، ضباب الصباح الرمادي

يتصاعد من نهر النيفا ، حتى أن موظفي البيوت بدوا له بلون رمادي قذر.

مضى دوستوفسكي وقد رفع ياقة معطفه حول عنقه، وأدخل يديه في جيوبه، وراح يردد بنفس الصوت: - بأئس، بأئس.

راح يطوف المدينة بلا هدف، يمشي من أجل أن يمشي. والمدينة - التي تتسع للمضطهدين من قبل الأغنياء، والأشرار والأغبياء، المدينة اللعينة والعظيمة في آن واحد، مدينة الشحاذين والبيوت العامرة والقصور الالامعة. انفتحت أمامه كما تتفتح صفحات معروفة لديه من كتاب مكتوب.

وجرى اللقاء الثاني مع ناستيا مصادفة في إحدى الأمسيات.

عندما لم يستطع دوستوفسكي الكتابة كانت تشده شوارع بطرسبورغ والناس للخروج إلى الشارع. أولئك الناس الذين يفكر دوستوفسكي بهم طوال الوقت، وسيبقى يفكر بهم إلى الأبد.

أخذ دوستوفسكي ينظر إلى الناس، وهم يحدقون في واجهة مخزن الحلويات المضاء. وإلى قرون الشوكولا المعروضة بغزارة ووفرة، وإلى ذلك الشاب بوجهه المصفر المزرق، وإلى نظراته الشرهة، نحو علبة الشوكولا الكبيرة المحزومة بشريط حريري بكل أناقة. وعليه معطف عتيق أخضر اللون غامق، ضيق عند الخصر وياقته مرفوعة حول عنقه، وعلى رأسه سدارة عليها إشارة الموظفين، أما يداه فقد ملأت جيوبه. وفكر دوستوفسكي: «الابد أنه يحلم بشراء البونبونوركا لحسنائه».

أما ذلك السيد الأنيق الملبس، فقد جلس بذقنه المتدرجة المقسومة إلى قسمين مع سالفه الوقورين الشائبين، بأنفه المرقد والسعادة بادية على محياه مما يراه من معروضات. أما رتبته فليست أقل من مستشار، وهو طيب القلب ويحب عائلته مع أنه ليس مستعداً أن يقوم بفعل الخطيئة

سراً. وقال لزوجته التي تنتظره ولا بنته العروس ولولده المدلل، أنه سيقوم بزيارة لأحد أصدقائه، ويذهب إلى مخزن الحلويات ويبتاع البونبونوركا ويحملها إلى سيدة قلبه.

وقف دوستوفسكي أمام واجهة المخزن قرب شاب، ودخل المستشار إلى المخزن، وبعد لحظات، خرج حاملاً بيديه علبة الشوكولا الفاخرة، فنظر الشاب إليه بكرهية، وقال بصوت شبه مسموع:

- القدر!

- ماذا بك؟ سال دوستوفسكي. والتفت الموظف إليه وقال:

- أنا لا أوجه كلامي إليك يا سيدي، بل له. وأشار بإصبعه إلى

ذلك الرجل الرصين.

- وهل تعرفه؟

- أعرفه. فهو رئيس قسم في دائرتنا، وقريباً سيصبح جنرالاً ونائباً

للمدير. أنه حيوان من الدرجة الأولى. لكن لماذا تهتم به؟

- هكذا - أجاب دوستوفسكي - أرجو أن لا تظن أنني سأقدم

لك المواعظ، فالشباب المتحمس يفضب بسرعة. لقد كنت أنظر إليك

وأفكر إلى أي حد تريد شراء البونبونوركا.

- وكل ما أملك، ربعاً - أجاب الشاب - ما زال بعيداً يوم العشرين

من هذا الشهر. لهذا تراني أقف وأنظر وأذوب من القهر، ولدي أمنية

أخرى يا سيدي، هي أن أضرب هذا الزجاج بقبضة يدي، حتى يتساقط

كل شيء رأساً على عقب. لدي الأمنية ولا أملك الشجاعة الكافية، فأنا

بطبيعتي متواضع وملتزم بواجباتي، ولا تأتيني هذه الشجاعة إلا بعد أن

أتناول الكحول.

لم يعرف دوستوفسكي، (من أين وجد هذا الأحمق)، فقدم للموظف لفاقة وسأله.

- هل سيبقى هنا طويلاً تخز بنظراتك الشوكولا، وقرن القصب.  
- ليس لدي أي عمل أعمله في المساء.  
- إذاً لنمشي سوية بعض الوقت.  
- إذا كنت ترغب في ذلك يا سيدي؟  
وسارا في الشارع المليء بالمصاييح، والمارين وطقطة الخيل تقرع البلاط بحوافرها، والمارة يضحكون...

وفي إحدى الزوايا - توهجت أضواء أحد المطاعم.  
أمام باب المطعم وقف حاجب من العسكر بسدارته المرصعة بخطوط ذهبية، وبشاربيه الأسودين الكثيفين. وقال دوستوفسكي وكأنه يحدث صديقاً له.

- أرجو أن لا تفهمني خطأ، لكن اسمح لي أن أدعوك لطعام العشاء.  
- سأعترف بهذا الجميل. وأشار الموظف برأسه موافقاً، وعندما خلع معطفه في المطعم ظهرت بذلته العتيقة النظيفة، وسترته الزرقاء بأزرارها الصفراء وعليها شارات الوظيفة، وبنطاله المنتفخ عند الركبتين. لم يكن المطعم مزدحماً بالزبائن، فاحتل دوستوفسكي وصديقه الجديد طاولة قرب النافذة. وطلب دوستوفسكي من النادل أن يقدم لصديقه وجبة من النقانق مع الملفوف، وزجاجة فودكا، وطلب لنفسه شاياً مع الليمون.

- اعذرني لهذه الضيافة المتواضعة - فلا أملك الآن سوى القليل من المال - قال دوستوفسكي مرتبكاً - فأنا أرى على وجهك أنك تكاد تتفجر وتقول: «أي نبيل هذا، يريد أن يظهر كرمه ونبله بروبيل؟»  
.. اعترف أنك تفكر بذلك!

- لقد حزرت يا سيدي الكريم. ولو لم تقل هذه الكلمات الآن  
لنهضت وخرجت في الحال. خرجت خجلاً من ذاتي. لقد كنت طالباً في  
أرخانفيلسك. صحيح أنني لست لومونوسوف، ولكنني درست سنتين في  
الجامعة وحلمت بالعلوم والمثل العليا، وقرأت تولستوي، تورغينيف،  
نيكراسوف، دوستوفسكي. أساتذة الحياة المعاصرة. وشاهدت  
كوميديا أوستروفسكي في المسرح. بعد ذلك عملت في الإدارة وتحولت  
تدريجياً إلى مساعد حقير لطاولة الرئيس. ودون أن يقول «في صحتك»  
شرب الشاب قذح الفودكا الكبير المصنع بشراهة، ثم صب لنفسه من  
جديد، وبدأ يلتهم الطعام.

- لماذا لا تشرب؟ سأل الشاب.

- لا أريد. - أجاب دوستوفسكي.

- إذاً لا داعي، سيبقى لي أكثر. واسمح لي أن أسأل، من يتشرف

ويضيفني؟ من يجب أن أتذكره في صلاتي؟ أرجوك أن تقول. فأنا  
ألكسندر بيتروفيتش إيفانيتسكي، وعمري خمسة وعشرون عاماً،  
وحدق في دوستوفسكي منتظراً الإجابة.

أنا أديب وأدعى دوستوفسكي... أجاب دوستوفسكي هامساً.

ودفع الموظف الكرسي إلى الوراء محدثاً ضجة كبيرة، وقف  
منتصباً، وعكس وجهه القلق مشاعر التعجب والدهشة.

- فيودور دوستوفسكي. يا إلهي! ألسنت في حلم؟ كم أنا أهبل.

أنت دوستوفسكي بالضبط؟ أنت كما صوروك في المجلات! وأجلس  
دوستوفسكي الشاب بهدوء على كرسيه وقال:

- لا داعي لهذه الضجة، لماذا؟ ورشف ما تبقى من الشاي وأشعل سيجارة.



أثناء ذلك، دخل صالة المطعم ضابط في الجيش يتأرجح مخموراً  
بشاربيه الأشقرين المفتولين بجرأة - ودخلت وراءه فتاة ذات شعر أسود  
ترتدي فستاناً سماوياً من قماش رخيص، مطرز عند ياقته ببعض القطع  
البلورية. وارتدى الضابط على كرسي قريب من طاولة دوستوفسكي،  
وصاح بصوت عال.

- يا سيدة. أرجو أن تأتي إلى هنا بمشية الفرس.

جلست الفتاة ذات الفستان السماوي في مواجهة الضابط، وظهرها  
إلى دوستوفسكي. وهرع النادل إلى الضابط.

اقترب إيفانيتسكي برأسه من دوستوفسكي وقال:

- أريد أن أقول لكم بعض الكلام الشاعر ييا فيودور

ميخائيلوفيتش. «سعيد من هو مؤمن، ويحس بدفء الحياة»، أما أنا فلا  
أستطيع أن أؤمن، وفي رأسي لا توجد أية أفكار. لقد أكلت الإدارة كل  
ما في رأسي. وضحك قليلاً وأردف بصوت غير معبر، بالنسبة لتساؤلك يا  
سيدي النبيل في العدد 342 من شهر كانون الثاني في هذا العام، أود أن  
أخبرك بما يلي: «أن مثل هذا الأدب الذي أنشغل به كل يوم... حان وقت  
انتحاره.. كنت سابقاً أبحث عن الأجوبة لأسئلتني في الكتب الجيدة،  
والآن أجد كل الأجوبة»... وصبّ قدحاً من الفودكا وشربه، فكرت أنني  
سأجد في الحب المثل العليا - أن أبني حياة عائلية مع حبيبتي في عش  
متواضع. في العش - الجنة. لكن الحبيبة، لا ترغب في العش - الجنة، بل  
تريد أن أقدم لها شقة بثلاث غرف، وراح تاجر غني جديد يتودد إلى  
حبيبتي «درس في كلية التجارة»، وأنا لا أستطيع أن أقدم لها حتى هدية  
متواضعة، وظهرت في عينيه دموع مخمورة، وقال بعناد - لا أستطيع... أنت  
بنفسك شاهدت يا فيودور ميخائيلوفيتش بأي شوق كنت أنظر إلى اللعبة

المحزومة بشريط الحرير. شاب عمره خمسة وعشرون عاماً، ويتقاضى خمسة وعشرين روبلاً، وعليّ أن أدفع أجره الغرفة، المليئة بالصراصير، موضوع قريب إليك يا فيودور ميخائيلوفيتش.

ومثل تلك السيدة.. وأشار بأصبعه إلى السيدة الجالسة مع الضابط - تثير القرف. لهذا سأشرب من أجل صحتك. وصبّ القدح الأخير ووضع مرفقيه فوق الطاولة، وأسند رأسه إليهما.

جلس دوستوفسكي وأمامه الكأس الفارغة، مقطباً جبينه، ناظراً إلى عنق الشاب المخمور الملتوية، وأحسّ بالضيق والارتباك. الارتباك من نظرات النادل الفضولية، الذي راح يمرّ بالقرب من الطاولة، وينظر إليهما بوقاحة. والارتباك من أنه كان يرى أمامه روحاً بشرية عارية، قد أهدرت قواها الحياتية بشكل مأساوي.

وقطع النادل سلسلة أفكاره قائلاً:

- ألا تريد يا سيدي شيئاً آخر؟ واسمح لي أن أطلب منك إيقاظ نديمك. وأشار بمنديل قدر نحو الموظف، فالزبائن الأكثر نبلاً ينفرون من هذا المنظر.

- هل تتوجه بحديثك إليّ؟ - سأل دوستوفسكي وشدّد على نطق الكلمات.

- يا سيدي أنا بخصوص حسابكم يا سيدي - قال النادل وهو يبحث عن مخرج له - إن صاحب المطعم مستاء، أما نحن فعملنا صغير للغاية يا سيدي.

- كم تريد مني؟

- روبلين وعشرين كوبيكاً.

قدم دوستويفسكي له قطعة ورقية من فئة الثلاث روبلات وقال:

- احتفظ بالبقية لنفسك.

- أشكر سعادتك، مع الإجلال يا سيدي - وابتعد.

وعلى الطاولة المجاورة، كان العسكري برتبة نقيب يشرب الكونياك بأقداح كبيرة، ويستضيف المرأة الجالسة معه، وهو يغني بصوت بشع مقطعاً من «يلينا الرائعة» ثم يسألها:

- ألا ترغبين يا مادموزيل بتذوق الدراق؟

- أفضل تفاحة من نوع أنطونوف.

- هذه ضيافة بسيطة، لكني أقول لك الصدق، إن الدراق يتناسب

مع النساء أكثر بكثير من التفاح.

أكدت المرأة ثانية على رغبتها في أكل التفاح، أما الضابط فظل

على رأيه مصراً.

وانقطع دوستويفسكي عن أفكاره، وتطلع إلى المرأة وارتعش قلبه عندما عرف فيها ناستينكا. إنها هي، ناستينكا التي أشفقت عليه ودعته بالبائس. كم المدينة كبيرة، وكم طرقاتها البشرية ضيقة.

- هاي - صرخ الضابط - . قَدِّمُوا لَنَا الدَّرَاقَ بِسُرْعَةٍ. لَكِنْ لَمْ يَكُنْ

يُوجَدُ دَرَّاقٌ فِي الْمَطْعَمِ.

- لِيَأْخُذْكُمْ الشَّيْطَانُ، - صرَّخ الضَّابِطُ مَهْتَاباً - سِنَاعَةٌ، أَيْنَ

تُوجَدُ الْفَوَاكِهِ عِنْدَكُمْ! أَيْنَ صَاحِبِ الْفَمِ الْكَبِيرِ؟... أَسْأَلُكَ أَنْتَ.

- لَدِينَا تَفَاحٌ مَنْقُوعٌ، وَاجَاصٌ مَحَلِّيٌّ يَا سَيِّدِي. - قَالَ الْخَادِمُ.

- أَرِيدُ إِجَاصاً. وَهَرَعِ النَّادِلُ لِجَلْبِ الْإِجَاصِ.

- عِبْثاً تَفْعَلُ ذَلِكَ - قَالَتِ الْمَرْأَةُ - لَوْ طَلَبْتَ لِي تَفَاحاً مَنْقُوعاً

لَكَانَ أَفْضَلَ.

- أنا لا أسألك يا مخلوقة - زار الضابط - مهمتك أن تسيري على قوائمك الخلفية ككل....

وليست مهمتك أن تفكري. وأختك أسوأ من حشرة. اشربي، وصباً قدحاً من الكونياك، وضرب بيده على الطاولة. انصاعت المرأة لأمره بقرف ظاهر.

- سأشرب هذا القدح الأخير، لقد امتلأ جوفي، والله إنني مخمورة بطبيعة الحال. الأفضل لو نذهب إلى البيت.

- إلى أين؟ سأل الضابط بعجرفة - أين بيتك؟

- لقد كنت عندي البارحة.

أحضر النادل إجاستين دبقتين على صحن ووضعهما على الطاولة. وأمسكت ناستيا الإجازة بطريقة لا تتناسب مع المطعم، وبدأت بأكلها. وشرب الضابط قدحاً آخر.

وفجأة خطف الإجازة الثانية ورمها في وجه المرأة فأصابتها ما بين العين والأنف والخد والذقن، وامتلاً وجه ناستيا بالسائل السكري.

- كيف لا تخجل من ذاتك يا سيادة النقيب؟ هل يجوز ما فعله؟ هذه إنسانة، امرأة، وأنت تهينها.

وقف دوستوفسكي بحدة أمام الضابط بعينه الغاضبتين، وبيديه المرتجفتين.

- بأي حق تتدخل فيما لا يعنيك يا سيدي الكريم؟ ومن أنت؟

واتسعت عينا ناستيا وهي تنظر إلى دوستوفسكي. لقد عرفته واحمرّ وجهها من الخجل. لم تخجل من الإهانة التي ألحقت بها، بل من رؤية دوستوفسكي لها.

- أنا لست غاضبة عليه. قالت بصوت متحشرج من الدموع المنهمرة على وجنتيها. لست غاضبة. لا تقلق يا فيودور ميخائيلوفيتش - وأضافت بدلة - وهل نتجرأ نحن على الغضب.

وأفاق الموظف من نومه، واقترب من دوستوفسكي.

- من أنا - قال دوستوفسكي للنقيب - أنا ضابط مسرح وكرجل أكبر منك سناً أقول لك لا يجوز التعامل بهذه الحماسة مع النساء. فأنت تعاملها بوقاحة، كونها كائناتاً ذليلاً محتاجاً. كلا لا يجوز ذلك.

أمسك الموظف دوستوفسكي من ذراعه وقال:

- ماذا بك يا فيودور ميخائيلوفيتش، هل تناقشه؟ وهل من أمثاله يفهمون شيئاً؟ هم لا يفعلون إلا الجلافة. وأنت يا سيادة النقيب عليك أن تعرف، إنه شرف عظيم لك أن تتحدث مع فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي شخصياً. أنا وإياكم سنموت. ولن يبكي أحد. أما مؤلفاته فستبقى خالدة.

وفتح الضابط عينيه نظر بدهشة حادة إلى دوستوفسكي. وقال

بعد أن وقف على قدميه:

- ماذا بكم يا سادة؟ أمن أجل هذه السخيفة توبخونني؟ أنا أقدم

اعتذاري بكل سعادة لقاء التعارف معكم فقط، أنا مخمور كحيوان،

وأعذر أمامكم بكل صدق. لكن أن اعتذر من هذه العاهرة فلا يسمح

لي شرفي بجرح كرامتي: شامبانيا أيها النادل! وهمس الموظف:

- فيودور ميخائيلوفيتش، إن النقيب على حق، فهو ليس مذنباً.

هل هو يفهم ذلك. ليس لديه مثل هذا العقل. وهزّ دوستوفسكي

كتفيه وقال:

- أعتذر، لا أستطيع أن أشرب.

- وأأسفاه! - حزن الضابط - أين خدمت يا سيدي.

- في خطوط فوج سيبيريا.

- سيبيريا. فأنت إذا ابن البلد، موسيقا، سلام خذ، أورا - أورا.

ورد دوستوفسكي على التحية بإيماءة من رأسه، واتجه نحو

المخرج.

وبينما كان يرتدي معطفه، هرعت إليه ناستيا بوجهها الذي يشبه

وجه مجنونة، وأمسكت يده، وجرتها إلى صدرها وقالت:

- سأذكرك، سأذكرك أبد الدهر. والتفتت جانباً، ثم هرعت

راكضة إلى صالة المطعم.



وكان لقاء أخير مع ناستيا.

قبل وفاته بقليل، ألقى دوستوفسكي كلمة الأدياء في الأمسية

الخيرية التي أقيمت في صالة جمعية الدائنين المقابل لمسرح

ألكسندروفسكي. وأستقبل الشباب كالعادة ظهوره على خشبة المسرح

بتصفيق حاد مرحبين به. وقرأ فصل «اعتراف القلب الحار» من رواية

«الإخوة كارامازوف». بوضوح وعاطفة مؤثرة، وكأنه يحدث المستمعين

عن سر عميق، وكان صوته الأصم مسموعاً حتى المقاعد الأخيرة من

القاعة.

وهناك البعض كفنان، بكل صدق، وآخرون بحسد ظاهر.

ارتدى معطف الفراء، وهبط الدرج محاطاً بالطلاب والطالبات.

فجأة ظهرت من خلف الأعمدة هيئة نسائية.

- فيودور ميخائيلوفيتش، ورن صوتها المرتعش برجاء.

- ناستينكا! اندهش دوستوفسكي، لم يعرفها في البداية،

كيف لا يعرفها، لقد عرفها ولكن لم تكن كالسابقة. كانت ناستيا تقف أمامه امرأة شابة ترتدي لباسها بتواضع، من دون تلك القبعة السخيفة، أو الحواجب المدهونة، ومن دون البودرة، بل في فستان أبيض مع معطف قصير، بوجه تعب، لكن ليس شاحباً، بل وردي اللون، وعيناها تملك الحق أن تنظر إلى كل إنسان بافتخار.

- كنت مارة من هنا يا فيودور ميخائيلوفيتش، فشاهدت الإعلان

واسمك عليه، فسألت الخادم: «أين أستطيع شراء تذكرة للأمسية، ولحسن حظي وجدت تذكرة، لكن في البلكون وفي آخر الصفوف، جلست واستمعت إليك فقط، استمعت وبكيت.

أخذ دوستوفسكي يدها وداعبها، فارتبكت ناستيا، وابتعد الحاضرون عنهما بلباقة.

- أين أنت الآن. كيف حالك؟ أخبريني هذا ضروري. نعم ضروري أن أعرف.

- أعمل في ورشة خياطة، فبعد أن تشاجرت مع الضابط في ذلك المساء، لم أستطع استقبال الزوار. لقد سئمت ذلك.

- لنخرج إلى الهواء الطلق يا ناستيا، فأنا تعب جداً، هل ترافقيني؟

- وكيف لا، بل بكل سرور. فأنا شاكرة لك طوال حياتي.

وخرجا إلى شارع نيفسكي بروسبكت، ولفحهما الهواء المسائي

الرطب وضجة حياة الشارع والطواقم، وأخذ دوستوفسكي ناستيا من مرفقها وسارا.

- حدثيني، استعجلها دوستويفسكي - فربما لن نلتقي ثانية  
- وارتعش مرفق ناستيا - ليس لأنني لا أرغب في ذلك، بل لأننا جميعاً  
نسير تحت حماية الرب. أنا عجوز مريض، حتى أنني سافرت للخارج إلى  
ألمانيا من أجل العلاج.

- ماذا بك؟ - سألت ناستيا بحزن - دع الله يعطيك قرناً من العمر.

- تكلمي عن نفسك يا ناستيا.

- أنا أعمل في ورشة خياطة، استأجر أنا وصديقة لي شقة في شارع  
كرونفيرسكايا، ولدي خطيب، - قالت ذلك بكبرياء خاص - يعمل  
حداداً، واسمه - ابتسمت قليلاً، - فيودور مثل اسمك.

كنت ذاهبة إلى العمل فشاهدت الإعلان والعربات المزدحمة أمام  
المدخل - تاهت ناستيا في حديثها، ولذلك صمتت فجأة.

ونظر دوستويفسكي إليها بطرف عينه - كان سعيداً بلقائها،  
حتى أنه كان يرجف من السعادة.

ومن جديد بدأت ناستيا الحديث.

- منذ عدة أشهر قدمت لنا ممثلة مهمة من مسرح  
ألكسندروفسكي معلومات كاملة عنك - كانت تخطط فستاناً عندنا  
- وقالت لنا أين يمكن شراء مؤلفاتك. اشتريت رواية «الجريمة والعقاب»،  
وقرأتها بصوت مسموع، إذ كانت هتات أخريات يأتين لسماع الرواية.

- وهل أعجبتكم؟ - ابتسم دوستويفسكي فرحاً، وشعر بأن الألم

يزول عن صدره:

- إنها سماوية، أتعرف، لقد اقتلعت أفئدتنا، تحللون وتصيبون.

- لم تكن ترى ناسيتا غيره تحت أضواء المصابيح وضجيج الناس في الشارع، وكما في تلك الليلة الماضية البعيدة، ارتمت بوجهها الندي، النظر على وجهه وقبلته على خده.

كان الناس، صفاراً، كباراً يسيرون على شارع نيفسكي بروسبكت، وكل منهم مشغول بأعماله وأفكاره: هؤلاء الناس الذين تعودوا على رؤية مثل هذه المشاهد العامة. لم يهتموا مطلقاً برؤية امرأة شابة، وعلى رأسها منديل، تقبل رجلاً عجوزاً وسط الشارع. ومن يندهش من رؤية هذا المشهد حقاً؟!

# بيان عن الحرب

كانت ریح منعشة تهب من البحر، والغيوم تطبق على الشمس من كل الجهات، وعندها كانت الشمس السعيدة الكبيرة تنفذ من بين الغيوم بين الفينة والفينة، تنعكس أشعتها على القناطر وعلى زجاج المخازن ونوافذ البيوت.

شعر دوستوفسكي بالنشاط يدب في جسده وأحس أنه قد أصبح أصغر سناً، إذ كان يتنفس بعمق من هواء شهر نيسان الربيعي. ورغب في السير على قدميه، بعد عمله المرهق طوال الليل، رغب أن يسير بعزم الشباب - مثل هذين الطالبين في الكلية الحربية واللذين يضحكان من شيء غير معروف. سار في الشارع وقد امتلأ صدره بالحب والهدوء لشارع نيفسكي بروسبكت. كان الشارع يمتد مستقيماً، كأنه يقسم المدينة إلى نصفين. لم تستطع آثار برلين ولا جمال روما أن تسحر قلب الكاتب، كما سحرته أبنية شارع نيفسكي بروسبكت.

جسر أنيتشكوف والخيول البرونزية التي صنعها «كلود توم» في الأربعينيات ومسرح ألكسندروفسكي، وغوستيني دفور بحانيته وموضته - أه إن كل شيء يحيط به سعيد بالنسيم وشمس الربيع.

فجأة تغير كل شيء، إذ تجمع الناس حول البيان الرسمي الذي علق قبل لحظات على واجهة مخزن الكتب، وسمع دوستوفسكي أصواتاً هائجة والكلمة التي خفق قلبه عند سماعها، تلك الكلمة التي تأرجحت في الهواء، كلمة الحرب.

- هل هذا بيان عن بدء الحرب؟ سأل دوستوفسكي شاباً أحمر الخدين في لباس مهندس طرق.

- نعم، عن الحرب مع تركيا. وموقع من الإمبراطور في كيشينيوف.

وقرأ المهندس بصوت مسموع البيان الذي يدعو القوات المسلحة الروسية، أن تشهر سيفها من أجل عمل مقدس، تحرير السلافيين من الاضطهاد التركي الذي دام قرناً عديدة.

- سنحاصرهم من كل الجهات. هذه نهاية الأتراك. هذا ما قاله

رجل رصين ملتج، يرتدي بذلة جوخ زرقاء بصوته الأجلش.

- لقد كسر الأتراك العرب... ويقولون أن الجيش التركي مسلح

بالبنادق الإنكليزية، إضافة لتعصبهم وإيمانهم الأعمى، ولدعم الإنكليز والألمان لهم. هذا ما قاله سيد كبير في السن، يرتدي معطفاً مهترئاً. واعترض حديثه ضابط شاب من سلاح المدفعية ذو شاربين أسودين رفيعين.

وأصغى إليه بعض الطلاب وطلاب المدارس الثانوية وهم يشاركونه

مشاعره، وقال ذلك الضابط بحماس شديد مضيفاً إلى كل عبارة من عباراته «هكذا إذا».

- عبتاً تلومون العرب، فالعرب شعب شجاع، لكنه لم يتعود على

الحرب الطويلة الأمد. هم ثوار شجعان، هذا ما أكده الجنرال تشرنيايف، «هكذا إذا» يا سيدي الكريم. صحيح أن البندقية الإنكليزية أفضل من بنديقتنا، فهي ترمي لمسافة أبعد، لكن - الجندي التركي مجرد راع أمام الجندي الروسي، والجندي الروسي، نظامي مؤمن بواجبه، إضافة أنه يقوم بعمل مقدس «هكذا إذا»... والمدفعية الروسية هي الأولى في أوروبا من حيث دقة الإصابة، «هكذا إذا»...

وقرب كاتدرائية كازانسكي، جمد تمثال الفيلد مارشال

كوتوزوف وتمثال - كلاي دي تولي في عظمتها البرونزية.

دخل دوستوفسكي المعبد. دخل ليصلي من أجل نعمة النصر

لروسيا العظيمة. وهناك كان كثير من النساء والفتيات الصغيرات.

استند بظهره إلى أحد الأعمدة وراح يفكر: «هذا ما كان متوقعا.  
الحرب! كم سيموت من الجنود؟ كم ستترمل من النساء وكم سيتيم  
من الأطفال؟.. لكن لا يجوز أن نترك الباشا بوزق التركي، يدمر قرى  
بلغاريا المزهرة، وأن يحرقوا الكنائس ويغتصبوا النساء، وأن يقتلعوا  
العيون من المآقي.

هذه ليست حرباً ذات مقاطع مغرضة، بل من أجل إنقاذ الإخوة  
السلافيين. إنها حرب مقدسة وعادلة.

صلى دوستوفسكي، ورسم إشارة الصليب على صدره، واقترب  
من ضريح موتوزوف، الذي انحنى عليه المتعبات لتحافظ على راحة نومه  
الأبدي، وترددت أبيات من شعر بوشكين في أذني دوستوفسكي.

مطأطئ الرأس. آقف أمام الضريح المقدس...



أ. بوشكين - لوحة الفنان كيرينسكي

# معرض الوجهاء

تلقي دوستوفسكي دعوة للمشاركة في حفل افتتاح السوق الكبير، الذي أقيم لمساعدة الإخوة السلافيين، الذين عانوا كثيراً من ويلات الحرب. وكانت السيدات المتأنقات بلباس السهرات والحفلات، يبعن كافة أنواع الخزف الصيني والأواني المصنوعة من قبل العاطلين عن العمل، أكواب، مزهريات، تماثيل وكان بعضهم يقدم الشمبانيا بخمس روبلات للكأس الواحدة.

اقتصروا المدعوون على النبلاء والأرستقراطيين، الذين راحوا يتبخثون باليستهم الرسمية، إذ كانت تلمع في كل مكان نجوم الوجهاء، وكتافيات الجترالات الذهبية.

وكان من بين الحاضرين إنكليزي «حاز على اهتمام كافة الحاضرين. كان حليق الذقن بسالفين مقصوصين بدقة متناهية، ينظر إلى الجميع بعينيه الزرقاوين وينحني رداً على التحيات. وأصبح معروفاً لدى الجميع أنه عضو في البرلمان الإنكليزي» وأحد كبار عشاق الفنون، هذا ما صرحت به السيدة التي يقيم في منزلها. وكان يتكلم الروسية بطلاقة حتى أنه شعر في بطرسبورغ كأنه في منزله.

هناك أجنبي آخر، حاز على اهتمام الحضور، وهو الدبلوماسي الفرنسي بذقنه الإسبنيولية، الذي يقف بظرافة لطيفة، ويتحدث مع الوجهاء.

كلاهما في لباس رسمي أنيق وقد وضع كل منهما قرنفة فوق ياقة بزّته قرنفة حمراء غامقة في عروة بذلة الإنكليزي، وبيضاء ناصعة على بذلة الفرنسي.

وكان دمترى فاسيليفتش غريغوروفيتش، الذي قدم مساعدته للإخوة السلافيين بشربه أربع كؤوس من الشمبانيا، يتحدث منتعشاً مع الفرنسي الذي يبتسم ويضيق من عينيه.

- نعم، نعم، قال غريغوريفتش - أنتم الفرنسيون خطوتم إلى الأمام في طريق التقدم والحضارة. هذا لا يحتاج إلى نقاش، تلك هي الحقيقة فنانينكم (ويقف لسانه داخل فمه) أوه معلمون عظماء في تصوير الطبيعة... «الطور على العشب» لإدوارد مانيه - حقيقة أقول، أن هذه اللوحة كلمة جديدة قيلت في الفن، أية شجاعة لديكم في تصوير النساء - العاريات وأية ألوان مؤثرة ساحرة. أما أدبكم.. وأشار غريغوروفيتش بعينه إلى الأعلى.

انحنى الفرنسي ووضع يده على قلبه شاكراً وقال:

- أستطيع الرد على الإطراء هذا بإطراء مماثل يا مسيو غريغوروفيتش. إن الأدب الروسي الجديد استطاع أخيراً الدخول في عداد الآداب الأوروبية، فنحن نقرأ بكل سرور - مؤلفات كتابكم الموهوبين من الدرجة الأولى أمثال السادة تورغينيف، تولستوي، دوستويفسكي، وتوقف لحظة ثم أضاف: ومؤلفاتك أيضاً.

اعتبر غريغوروفيتش أن مراسيم التعارف قد انتهت، فودعه الفرنسي المهم بانحناءة، وتوجه صوب الإنكليزي، وبعد دقائق، راحا يتحدثان بانتعاش.

- أظن يا سير - قال غريغوروفيتش - أن الأدب الإنكليزي، هو أقرب الآداب إلى الأدب الروسي، ففي عصرنا، عصر البخار والسكك الحديدية، عصر الميكانيك، أستطيع القول، أن أدبكم يحمل راية

إنكلترا المعجوز الطيبة، نعم يرفعها عالياً إلى الأبد. إنكلترا شكسبير (وأراد أن يضيف بايرون لكنه تراجع عندما لاحظ سعادة الإنكليزي الفائقة، فلم يقدم على ذلك) والكتاب مثل وليام تيكريه وتشارلز ديكنز. - لست من عشاق أدب ديكنز - قال الإنكليزي واحمرّ قليلاً - ربما كان ديكنز كاتباً جيداً، لكنه أحياناً يسمح لنفسه بالكشف عن عيوب المجتمع الراقي.

- أوه، طبعاً، إن ما قلته صحيح يا سير، لكن اسمح لي أن أقول بأنه لا يوجد مثل ديكنز من يستطيع سبر مشاعر الإنسان الخفية المقدسة، فهو قريب جداً إلى الأدب الروسي من هذه الناحية. - أنا لم أقرأ سوى القليل من أدبكم - قال الإنكليزي متكبراً - ولا أستطيع الحكم عليه فهو ما زال أدباً يناعاً جداً.

- لكن أرجو يا سير أن تسمح لي - قال غريغوروفيتش ملاطفاً روحه، ومرسلاً الإنكليزي إلى الشياطين - أقول، مع ذلك فقد قدم الأدب الروسي شيئاً ما للأدب العالمي.

- لم ألاحظ ذلك - قال الإنكليزي - فأنتم متعصبون جداً وغير منطقيين، من الصعب توقع ما تستطيعون فعله.

وسمع دوستوفيسكي أطراف الحديث، فاقترب وتدخل مباشرة. - مع أنني لا أملك الحق أن أتقدم إليكم، لكن من حقي كأديب روسي أن أقول لكم - واتجه نحو الإنكليزي - أنت تقول أننا لامنطقيين ومتعصبون، وأنا أوافقك الرأي من وجهة نظرك نحن حقيقة لامنطقيون ومتعصبون لأننا لا نفكر بالخير لإنسان واحد، بل لخير البشرية جمعاء. إن أدبنا - لا تتظر يا مستر إليّ بعينين مندهشتين - أدبنا يعكس في ذاته

طموحات وأماني العبقرية الروسية. وتذكر يا مستر أن هذه العبقرية تحترم عبقريات الأمم الأخرى، تحترمها...

- أوه: - قال الإنكليزي مندهشاً، - هذا غير معقول.

- لقد نطقت بالكلمة الصحيحة - (غير معقول) - بالضبط غير

معقول. إن شكسبير، ديكنز، غوته، هيجو، بلزاك، فولتير، قريبون منا. نأخذ ونحترم كل هذه العبقريات، ونبقى نحن روساً. نعم! نعم روس يا مستر. ونصنع فكرتنا العالمية، ولنا نحن تعود الكلمة الجديدة، التي سنقولها للبشرية جمعاء.

- هذا كثير جداً، حاول الإنكليزي بكل أعضاء جسده أن يظهر

استخفافه الكامل بكلام المتحدث المتحمس، فنفخ صدره ووضع عدسة مكبرة على عينه، وسأل لاشعورياً، بعد أن التقت عيناه بعيني دوستوفسكي البراقتين..

- أريد أن أعرف مع من لي شرف الحديث الآن؟ سيكون لطفاً

منك أن تشبع فضولي، وأن تذكر مؤلفاتكم الشخصية.

- أظن أن لا فرق عندك - أجاب دوستوفسكي - فكنيتي

دوستوفسكي، لن تخبرك شيئاً، كونك لا تقرأ الأدب الروسي، كما ذكرت منذ لحظات للسيد غريغورفيتش، أنك على غير علم بالأدب الروسي. وأدار دوستوفسكي وجهه وابتعد.

لم يلاحظ المتحدثان خلال غمرة نقاشهما، أنه تشكلت حولهما

حلقة من المستمعين، فكان منهم الأكثر وجاهة غير راضٍ عن النقاش الحاد، وآخرون استمعوا بمتعة إلى ذلك النقاش الأدبي.

وتوجه الدبلوماسي الفرنسي إلى غريغورفيتش، بعد أن ابتعد

دوستوفسكي وقال له:

- لقد قرأت وسمعت الكثير عن السيد دوستوفسكي، وأرجو أن تعرفني به، فهو كاتب مبتكر.

- نعم - قال الإنكليزي - ليس مبتكراً فقط، بل ومولع أيضاً، إنه روسي حقيقي.

وأرادت سيدة البيت، التي يقيم لديها الإنكليزي أن تزيل الانطباع الكريه الناتج عن النقاش فاقتربت بفستانها الأبيض، الذي تتلألأ عليه قطع الماس وقالت:

- سير، إن دوستوفسكي رجل مريض، مصروع، وعلى المرء أن يكون متسامحاً معه. نعم متسامحاً. ولهذا يستقبل في المجتمع الراقى. حتى أن الأمير ميشيرسكي والمستشار السري بوييدونوستسيف يحترمانه، ويهتم به شخصياً الأمير المعظم ولي العهد.

- أوه، هذا شيء آخر، لم أعرفه من قبل! - قال الإنكليزي مرتبكاً. في هذه الأثناء، احتل دوستوفسكي والدبلوماسي الفرنسي ركناً فارغاً هادئاً (فقد قدمهما غريغوريفتيش إلى بعضهما بعضاً وانسل منسحباً حتى لا يكون ثالثاً زائداً كما عبر بنفسه) وأشعلا السيجار وراحا يتحدثان عن الأدب الفرنسي، ولم يخف الفرنسي إعجابه بتلك الملاحظات التي ذكرها دوستوفسكي حول الأدب الفرنسي.

- أنا سعيد - كون هذه الأمسية تميزت بالتعرف إليك، واعترف الفرنسي: نحن الفرنسيون نقدر عالياً كل شيء رفيع جميل.

- أستطيع القول أن الفرنسيين أقرب إلينا من سائر الأمم - قال دوستوفسكي - فأنا مثلاً فتنت وأنا صغير بمؤلفات الأدب الفرنسي، بلزك، هيجو، جورج ساند. لكن هناك ملاحظة أريد أن أقولها، إن الفرنسي المتوسط، تبرجز كثيراً، إنه ينسى مجد فرنسا الأبيض، يتاجر

في المحلات الصغيرة الوضيعة ويفقد إحساسه بالروائع. واعذرني أن أقول: أنتم الآن في دور الشيخوخة، وهذا ليس جيداً، فعندما تشيح الأمة، تسهل قيادتها بأي مقود كان. أصبح وجه الفرنسي حزيناً، وأشار موافقاً برأسه. - أنت تقريباً على حق يا مسيو دوستوفسكي، تقريباً على حق، فرنسا المسكينة تحتاج لأصدقاء حقيقيين وأقول لك فيما بيننا، أنا على يقين من أن فرنسا في حال اتحادها مع وطنكم فقط، تكون سعيدة وتآمن لمستقبلها، وقطع حديثهما عجوز بنجوم وبزة رسمية مذهبة قائلاً: - عزيزي الفارس، لقد اجتمعنا لنلعب الويست<sup>1</sup>، أرجو أن تشاركنا اللعب.

نهض الفرنسي وانحنى لدوستوفسكي، الذي ظل واقفاً حتى انتهى من تدخين سيجارته، وسار غير راض عن هذه الأمسية، وخاصة عن نقاشه مع ذلك الإنكليزي وقال في نفسه: «لا بد أن يكون محموداً الآن، لأنني دعوته بمستر فقط، وليس بسير».

ومرّ بالقرب من إحدى الطاولات المليئة بالأواني الخزفية والمويسات<sup>2</sup> المصنوعة من الجبس. وهنا رأى وجه ألكسي بيسيمسكي الساخر بلحيته الشائكة. واقترب دوستوفسكي منه وحيّاه، فرد بيسيمسكي التحية مصافحاً دوستوفسكي، وتابع حديثه مع السيدة البائعة وعيناه تلمعان باستهزاء وسخرية.

هكذا يا سيدتي تريدين إقناعي أن سعر هذا الكلب المرعب، ثلاثة روبلات مع أنه لا يساوي أكثر من خمسة كوبيكات في يوم سوقه. - لكن، أرجو يا مسيو بيسيمسكي، أن تفهم أن هذا موبس خاص، فهو سيدكرك دائماً بتضحيتك المادية من أجل إخوتنا السلافيين. - قالت السيدة.

<sup>1</sup> الويست: نوع من أنواع لعبة الورق. كلمة إنكليزية الأصل. م.

<sup>2</sup> موبس كلمة ألمانية وتعني تمثالاً لكلب قصير الشعر، يستعمل لتزيين الصالونات. م.

- ميرسي، ميرسي، واتحنى ببسيمي سكي ساخراً - لهذه التضحية من دون دماء، لكن كان من الأفضل لو عرضت تماثيل جيسية لفينيرا، فهذا سيبعث مشاعر اللذة لدى الشباب والأرامل.. أما هذان واسمحي لي بقول ذلك، فهذا كلب سخيف، وتطلبين ثلاثة روبلات ثمناً له.

- لكن هذا في مصلحة، أريد أن أقول لمصلحة - تلعثت السيدة.

- إذا لم يعجبك هذا الموبس، فتستطيع شراء هذه المزهرة الخزفية بخمسة روبلات أو باقة من ورد القرنفل بثلاثة روبلات.

- أوه، - ابتسم ببسيمي سكي - إنك يا سيدتي تثيرين إعجابي فأنا لا

أستطيع وضع هذه المزهرة إلا في المطبخ، كان من الأفضل أن تبيعي عدة إصلاح، فهي تفيد في أعمال البيت في أسوأ الأحوال.

ومن الأفضل أن تضعوا على طاولاتكم، أقداحاً خيرية، ليستطيع

الزوار الوجهاء أن يضعوا فيها ما يقدرون عليه، ربما كان ذلك «سبباً» لتمسكك وولعك الكنائسي.

كادت السيدة تخرج عن طورها، فلم تجب بشيء، وهذا ما ابتغاه

ببسيمي سكي. عندئذ أخرج من جيب بنطاله محفظته العتيقة المهترئة وسحب ورقة نقود من فئة الثلاث روبلات وقدمها للسيدة، وحمل الموبس من رأسه بإصبعيه الاثنيتين.

- لكن أرجو ألا تقضبي يا سيدتي... سأخذ، مسخك هذا. ولي

شرف الانحناء لك يا سيدتي.

وقال ببسيمي سكي لدوستويفسكي في المشلح، وهو يرتدي معطفه.

- أنا لا أحب هؤلاء الوجهاء «الخيرين» يا فيودور ميخائيلوفيتش.

يصيبني القرف من تصرفهم، لأنني أعرف من جمهور موسكو

الأرستقراطي، أن هذه الأموال ستبقى في جيوب اللجان والموظفين، ولن يصل للإخوة السلافيين «من الناقة - الأذن».

وخيمت فوق بطرسبورغ ليلة معتمة غائمة، وكانت بعض المصاييح مشتعلة على الشاطئ، واجتاز دوستوفسكي وصاحبه بناء إدارة البحرية، ووصلا شارع نيفسكي بروسبكت، وهناك وجداً طفلة شحاذة تقف قرب البوابة وتصيح: - أعطوني من أجل المسيح.

ووضع كل من الكاتين قطعة نقود من عشرين كويكاً في راحة يدها الممدودة، وبعد أن سارا قليلاً توقف بيسيمسكي وقال:

- انتظرني قليلاً يا فيودور ميخائيلوفيتش. وعاد إلى الطفلة بخطى سريعة، وأخرج من جيب معطفه الموبس، الذي اشتراه بثلاثة روبلات، وقدمه للطفلة...

وعندما عاد إلى دوستوفسكي، تنفس الصعداء، وقال:

- يبدو حقاً أنه عمل خيرى.



سانت بطرسبورغ

# الطالبة الجامعية

كان دوستوفسكي قد ارتدى معطفه وراح يبحث عن ققازيه في جيوبه، وقد عزم على الخروج، عندما سمع دقات جرس البيت. دق الجرس دقة خفيفة، ثم راح يخفق.

فتح دوستوفسكي الباب وشاهد فتاة ليست طويلة، نحيفة وبانعة جداً، لا يتجاوز عمرها التسعة عشر عاماً، ترتدي معطفاً ذا ياقة من فراء قديم، بني اللون، وعلى رأسها قبعة من ذلك الفراء (ربما كان هذا الفراء من بقايا معطف والدتها).

- هل يقيم هنا السيد فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي؟ سألت الفتاة بحيرة.

- نعم، بماذا أستطيع أن أخدمك؟ تورّد خذاها قليلاً، وقالت:

- يبدو أنك ذاهب إلى مكان ما، لقد جئت في وقت غير مناسب.

- نعم فأنا ذاهب بخصوص عمل مهم، لا يجوز تأخيره، بالضبط لا يجوز تأخيره، وعليّ...

- آه كم ذلك مؤسف - أجابت الفتاة في حيرة من أمرها - وأنا لا

أملك الوقت الكافي، فالساعات محدودة، إضافة إلى أنني أعيش في الطرف الآخر من المدينة، وعليّ أن أسافر غداً.. إن ذلك يبدو محرّجاً...

- نعم أنا مشغول - قال دوستوفسكي، محاولاً ألا ينظر إليها

(حتى لا يرق قلبه، فإن فعل، فسيبقى في المنزل لا محالة). وتوقع

دوستوفسكي أن تبتعد الفتاة وتخلي سبيله، لكنها ظلت واقفة: لا تفصح مجالاً له ليخرج من الباب.

- أقول الصدق، لا وقت لدي. - قال دوستوفسكي بشيء من الاعتذار.

- وأنا كذلك، لا وقت لدي، ولا أستطيع أن آتي إليك مرة أخرى، فأرجوك أن تبقى، فلدي حديث مهم، بل مهم جداً. لقد فكرت كثيراً قبل أن آتي إليك - لكنه واجب علي، وطالما أنه واجب... - ولم تنه كلامها ورمقت دوستوفسكي بنظرة من عينيها الرماديتين الواسعتين... وعندما التقت نظراته بنظراتها، فهم دوستوفسكي أنها فعلاً قد جاءت من أجل شيء مهم، وهو لا يملك الحق في أن لا يستقبلها.

- حسنٌ، تفضلي - وابتعد جانباً ليفسح الطريق لها - هناك العالقة، تستطيعين تعليق معطفك عليها، يبدو أن الرياح شديدة في الشارع؟

- ربما، لم أعر ذلك انتباهي. وهذا ليس له أهمية. وخلعت معطفها فهدت نحيلة جداً، في فستانها البني ذي الياقة البيضاء، أكثر مما توقع دوستوفسكي، الذي فكر في نفسه: «لا جسد لها تقريباً».

في المكتب، قدم لها دوستوفسكي كرسيّاً، بقي واقفاً يفرك يديه إحداهما بالأخرى، ثم قال:

- حسنٌ، أنا مصغ إليك.

جلست الفتاة على الكرسي منتصبية الظهر، وهي تراقب كل حركة من حركات دوستوفسكي.

- آه، لو جلست يا فيودور ميخائيلوفيتش - قالت الفتاة - عندئذٍ

أستطيع الكلام بحرية أكثر، من الضروري أن أرى وجهك.

وجلس دوستوفسكي بعد أن ابتسم، وطلب الإذن بأن

يدخن سيجارة.

- قبل أن أتى إليك حضرت في ذهني كلمة كاملة، كانت تبدو لي رائعة ومقنعة، والآن تراني لا أستطيع أن... لكن مع ذلك... فأنت يا فيودور ميخائيلوفيتش، لا بد أنك عرفت من شكلي، أنني طالبة، فأنا أدرس السنة الثانية، وأنا من فولخوف. هناك أنهيت الثانوية، وقرأت كل مؤلفاتك، حتى «الشياطين»، وبرقت عينا الفتاة في تلك اللحظة. لديك فيها الكثير من الغموض. وأنا أقرأ «يوميات كاتب» لوجود بعض الأفكار العميقة أحياناً، والمعوجة أحياناً.

انتفض دوستوفسكي في مكانه، وأخذ نفساً عميقاً، وراح يسعل بينما أضافت:

- يبدو أن سماع ذلك مؤلم لك يا فيودور ميخائيلوفيتش، لكنني لا أستطيع الإفصاح عن ذلك بشكل آخر، ولن أحسب نفسي إنسانة، إذا سكتُ عن ذلك. فأنت كتبت «الناس الفقراء» و«مذكرات من بيت الموتى»، و«الجريمة والعقاب»، أية أعمال رائعة هذه! والآن أنظر إليك يا دوستوفسكي وأرى منظر العليل والمعذب وإلى جبينك الشبيه بجبين سقراط، وأفكر كم تعرف، وترى، وتتبأ، وكم تتألم؟

- كم أتألم! قاطعها دوستوفسكي فجأة، ونهض واقفاً. نظرت الفتاة إليه خائفة.

- اعدزيني، لقد أزعجتك. - وعاد وجلس في مكانه - أرجوك تكلمي، تكلمي، فأنت تقولين أشياء طيبة.

- أنا مسافرة غداً في الساعة الحادية عشرة. نحن ست طالبات، سجلنا أسماءنا في الفصيل الطبي. لم يكن ذلك سهلاً أن نفعل ذلك. لقد ساعدنا طبيب عسكري في ذلك، نحن ذاهبات معه. سيكون الأمر صعباً، وخاصة بالنسبة لي لأنني أدرس الآداب، أما البقية فهن من كلية الطب.

وبشكل لا شعوري نظرت دوستوفسكي إلى يديها النحيلتين،  
المصفرتين ولاحظ أصابعها الطويلة، وعروق دم زرقاء على كفيها. كانت  
يذاها مستلقتين بحنان على ركبتيها.

- لقد تعلمت التضמיד في الأسبوع الماضي في كلية الطب في مشفى  
مارينسكايا. طبعاً هذا لا يكفي يا فيودور ميخائيلوفيتش، لكن حيث  
لا تتفع المعرفة، ينفع الحب.

- لقد قلت كلمة رائعة - الحب. لكنك ضعيفة، غير قادرة على  
فعل ذلك في البلقان، فأنا أعرف تلك الأجنحة في المستشفيات وأعرف  
الجرحي. هناك ستجدين من تكون جراحه مرعبة نازفة متقيحة. الدم  
والألم.. - وأغمض دوستوفسكي عينيه - هذا ليس في قدرة فتاة، هذه  
بطولة لامرأة عانت الآلام وتريد أن تطهر نفسها في ذلك العمل المضي،  
أما أنت؟

- أنا، ماذا؟ سألت الفتاة - ماذا يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ لماذا تقول  
ذلك؟ التطهير، البطولة. هل تظن أن سونيا مارميلادوفا والمذلين والمهانين  
وحدهم قادرون على البطولة فقط.

- لا أقصد ذلك، أنت لم تفهميني جيداً، لم تفهميني جيداً.

- كلا يا فيودور ميخائيلوفيتش، أرجوك، سأقول لك السبب الذي  
دعاني للقدوم إليك. اسمح لي أن أشرح فكرتي أولاً، ثم تجيبني، حسنٌ.  
- حسنٌ، أنا مستمع إليك، سأصغي إليك كما تشائين، سأمنحك  
الوقت الكافي كما ترغبين. وأشعل سيجارة جديدة.

- لقد أحببت أدبنا، أحببت لمسه حقيقة الحياة، ولنزاهة أفكاره -  
تابعت الفتاة حديثها - أرجو أن لا تحكم عليّ من خلال مظهري، وتظن

أني ضعيفة وجلة، هذا مظهر خارجي أما الحقيقة فأنا صارمة متعنتة،  
وفي داخلي روح عنيدة.

وأوما دوستويفسكي برأسه موافقاً، وقد أعجبهت عبارة «روح  
عنيدة». كان والدي قساً طيباً، ضعيف الشخصية، ولم يكن من تعداد  
أولئك الآباء - واحمرّ لون الفتاة - الذين لا يعرفون سوى الصلوات  
والطلبات. كلا، لقد كان إنساناً اجتماعياً يقرأ المجلات والكتب وقد  
لقبوه عندنا بـ «المفكر الحر». وأنا كنت ابنته الوحيدة فلم يرسلني إلى  
مدرسة الأبرشية (لم يكن يحب القساوسة)، بل أرسلني إلى المدرسة  
الثانوية. إنني أرى من تعابير وجهك يا فيودور ميخائيلوفيتش أنك لا تحبذ  
مناقشة الأمور الدينية. أما أنا وأبي - ولعلت عيناها - لم نكن نناقشها  
فقط، بل ندينها، وفي المدرسة جاءت إلينا مديرة جديدة من الأسر الألمانية  
البارونية، قريبة المحافظ. كرهتني وضايقتني كثيراً، أما معلم القانون  
الأب ميخائيل فكان يدعوني بالنبته الطفيلية. وكان يقول، هكذا نرى  
نبته طفيلية في «كرم العنب»، وهناك شيء آخر - تلعثت الفتاة قليلاً ثم  
تماسكت والقلق باد عليها - ثم جاء شاب إلى فولوغدا، جاء من المنفى  
بعد أن فصلوه من جامعة موسكو. راح يتردد علينا، وتناقشنا وتحدثنا عن  
الله والدولة وعن بيلينسكي وتشيرنيشيفسكي وعن تولستوي وعنك يا  
فيودور ميخائيلوفيتش، وأعارني كتاب إرنست رينان «حياة المسيح» لقراءته.  
لم ترض والدتي بزيارات ذلك الشاب. هكذا منعناه من زيارتنا. بعد  
ذلك، وبأمر من الشعبة الثالثة أرسلوه إلى مدينة توتما الصغيرة. كما  
كان رائعاً ذلك الشاب يا فيودور ميخائيلوفيتش. سكنت قليلاً ثم تابعت:  
- وتوفي والدي في العام ما قبل الفاتت، بعد أن مرض مرضاً  
شديداً، إذ كان الصقيع شرساً في ذلك العام.

طلب الزواج مني أرمل غني متوسط العمر، يعمل في إدارة المحافظة. رفضت طلبه. وهنا راح الجميع ينظرون إليّ نظرات مستكبرة ويقولون: «متكبرة». أنهيت الثانوية. عندئذٍ سافرت على هنا لمتابعة الدراسة. أنا لا أحزن إلا على والدي، لقد تركتها وحيدة هناك.. وهنا تعرفت على كثير من الطيبين في بطرسبورغ، وقرأت كثيراً من الكتب الجيدة، فأنا أقضي وقت فراغي في المكتبة العمومية. أجلس هناك وأقرأ.

لم يعد دوستوفسكي يطيق صبراً فراح ينظر إليها ببرود وازدراء. - وأنت، اعذريني على مقاطعة حديثك، فهذا شيء مهم لمتابعة حديثنا، حتى أنك لا تقدرين كم ذلك ضروري لمتابعة حديثنا، وهل تضيفين الكتب الإلحادية إلى بقية الكتب الجيدة؟ وخاصة تلك الكتب التي يقولون فيها أن المادة تسيطر، تخيم على الروح. وهناك سؤال آخر. هل تعتبرين السيد المسيح، الإنسان الرب، منقذاً لهذا العالم؟ أم برأيك هو مجرد إنسان عادي مثلي ومثلك، وربما أفضل قليلاً؟ - ولوح بيده كأنه يبعد عنه هذه الأفكار المرعبة، ونهض عن الكرسي وراح يخطو في الغرفة جيئةً وذهاباً - فأنت حسب كل المعطيات، إنسانة مخلصه، مقدامة، (ربما لا تعجبك هذه الكلمة) فأنت سائرة في طريق العذاب الأخلاقي، الروحي لتساعدي القريب... إذاً كيف تساعدين القريب من دون الوصايا المسيحية. لا يوجد حب أقوى من أن يضحي الإنسان بحياته من أجل الآخرين أليس كذلك؟ أجيبني. كاد دوستوفسكي يصرخ بأعلى صوته.

- إذاً أنت تنتظر مني الإجابة؟! أنت الذي يستمع إليه آلاف الناس. هذا يعني أنه ليس لديك ما تقوله. هذا يعني أنك بنفسك إنسان ضعيف؟!

قالت ذلك الفتاة وعليها علائم القلق الشاقة.

لم تعد الفتاة الجالسة أمامه مجرد فتاة وجلة في فستان مدرسي بني بياقة بيضاء، بل إنسانة معادية بدون رحمة لأفكار ومعتقدات دوستوفسكي.

لم يجب دوستوفسكي بشيء، بل راح يخطو في المكتب بعصبية.  
- حسنٌ سأقول لك يا فيودور ميخائيلوفيتش. نعم، أنا لا أؤمن بالله، ولذلك لا أستطيع اعتبار المسيح ابناً له. ولا أعتبر التوراة والإنجيل كتباً ربانية، بل كتباً أخلاقية تاريخية، وبالنسبة لي، ليست الربانية في التسامح على كل شيء، ليست في الصلاة، وليست في الإيمان بحياة ما بعد القبر، ولا تظن ذلك ناتجاً عن كوني مازلت فتاة شابة والحياة ما زالت أمامي... لقد قال ببسيمسكي لصديقتي: «أنت يا سيدتي اللطيفة، لا تؤمنين بالله لأنك ما زلت صغيرة، لكن، عندما تعيشين إلى مثل عمري فستدافعين عن نفسك بمئة ركعة كل يوم».

لا يا فيودور ميخائيلوفيتش ليس بسبب ذلك... الربانية من وجهة نظرية، هي ما لدى الإنسان من مثل عليا في وعيه لواجبه أمام المجتمع - لواجبه أمام الشعب. لكن لديكم، عندما يفقد أي بطل من أبطال روايتكم إيمانه، يحسب كل شيء قد أصبح مباحاً بالنسبة له. وضكأن الإيمان بفعل الخير المسيحي... لجام للإنسان. وأنا عندما أذهب لمساعدة الجرحى فأنا لا أفعل ذلك من أجل إنقاذ روحي، أو لأجد مكاناً لي في الحياة الأبدية. بل أفعل ذلك من أجل المساعدة فقط، حتى يرى الناس أن المرأة الروسية ليست عبدة، بل إنسانة حرة ...  
احمرّ وجه الفتاة كلياً، ولكنها تابعت.

- آه، أخطأت من جديد، لم أقل ما يجب قوله... أنا لم آت إليك لأتباهى... إنك ترى كم أنا غبية. جئت لمناقشة ولحلّ بعض المسائل مع الكاتب الشهير، لكن ما حدث كان شيئاً آخر تماماً.

لا أحد مثلك يا فيودور ميخائيلوفيتش يشفق على الذليل، المهان بهذا الشكل، كما تفعل، لا أحد مثلك يستطيع تجسيد معاناته الروحية، وأنت تحترم النساء. ولقد ذقت الألم في منفى الأعمال الشاقة، هذا يشكل جانباً، أما الجانب الآخر ففبك يعيش اثنان، أحدهما بارد والآخر مسيحي. ليس مسيحياً مثل ميشكين أو مثل ذلك العجوز في «المراهق» بل مسيحياً شريراً لا يساوم أبداً، مثل نيكون. أنت شبيه بوييدونوستسيف هذا هو أنت، هذا هو أنت. وانهمرت الدموع من عينيها. إنك تأخذ بتلايبب الناس وتجرها إلى مملكتك السماوية... و... وهنا تعلمت في كلامها.

- اخرسي، وأمسكها دوستوفسكي من ذراعها، وشدها بقوة، وارتعشت أنفاسه حتى بدا كأنه يشخر شخيراً. - أنت طفلة متفطرسة وغبية. أنت، أنت، كيف تستطيعين الحكم عليّ؟ كيف تستطيعين؟ - قال ذلك بمرارة وازدراء.

- فيودور ميخائيلوفيتش - قالت الفتاة خائفة - أنا لم أقصد ذلك أبداً. لقد قلت ذلك وأنا منفعلة، لقد أتيت إليك بقلب نظيف، سامحني.

وفعل دوستوفسكي المستحيل حتى تغلب على غضبه.

- مع السلامة - قال دوستوفسكي بصوت حاد. فردت الفتاة:

- سامحني.. ونهضت وانحنى بإحراج أمام دوستوفسكي،

وخرجت من المكتب.



كانت صالة الدرجة الثالثة الوسخة في محطة قطارات نيكولايفسكايا معتمة جداً. وكانت تقص بالمعاطف الرمادية العسكرية والحقائب الظهرية وأباريق الشاي المعدنية وضجيج الأحاديث الذي لا ينقطع، وكانت كافة المقاعد مليئة، حتى أن بعضهم قد جلس على الصناديق هنا وهناك. تجمعت قرب النافذة الواقعة بجانب المدخل مجموعة المسافرين، المؤلفة من الأخوات الطيبات الممرضات والطلاب المساعدين للأطباء. وكانت الأخوات يرتدين مناديل سوداء، ومعاطف سوداء أيضاً وعلى أطرافهن، شرائط بيضاء، رسمت عليها شارة الصليب الأحمر بشكل واضح.

أما الطلاب فكانوا في معاطف عسكرية وبكتافيات تشير إلى أنهم من المتطوعين.

وسأل طالب طويل القامة ذو وجه تعب مصفر الفتاة الصغيرة

الرقيقة كاتيا:

- إذا فلقد زرت دوستوفسكي؟ ماذا قال لك ذلك الرسول الجديد؟

- نعم. كنت عنده. - قالت الفتاة بحماس ثم أضافت - وأنا لا أفهم

يا ميخايلوف، لماذا تكلمني بهذه اللهجة الساخرة؟

- كيف إذا تريد مني كاتيا المحترمة أن نتكلم عن

دوستوفسكي؟ عن ذلك الكاتب، الذي داس بقدميه على كل مثله

العليا الأولية وأصبح داعية للكنيسة الأرثوذكسية!.

فهزت كاتيا كتفها وظهرت على وجهها علائم الغموض والحيرة.

ثم قالت: - أنت يا ميخايلوف، لا تقول ذلك بلباقة، تلك الجمل التي

تعلمتها، أنت لا تريد الفوص في أعمال روح الكاتب. هذا ليس عدلاً

وسامحني لقولي: هذا ليس نزاهة.

عندئذٍ علّق طالب مربوع القامة، أشقر الشعر، والمرح باد على عينيه الزرقاوين: - لقد وقعت كاتيا من جديد في المضاربات.

لكن كاتيا لم تنظر إليه. وقالت:

- أعتقد يا سادة، أن دوستويفسكي فنان موهوب وعميق في سنبر النفس البشرية، لكنه تائه كما في متاهات مصر.

وصرخت الفتاة السمراء، التي ظلت طوال الوقت صامتة:

- آه يا إلهي، كم سئمت من هذا الحديث. نحن الآن مسافرون إلى

البلقان يا زملائي الأعزاء وأمامنا أعمال مهمة وضرورية، ونحن الآن لا نفعل سوى أن نعكر دمننا بهذه المناقشات.

واتجه ميخايلوف إليها بحديثه قائلاً:

- لا توجد لديك يا تانيا مثلاً اجتماعية عليا. فلا فرق لديك بين

دوستويفسكي وتشيرنيشيفسكي.... عندئذٍ انفجرت تانيا غضباً:

- حسنٌ، أنا قانعة بذلك. أفضل لي أن أعمل عملاً من أن أترثر في

(الفاضي والمليان). أما ما يخص مثلي العليا فأنت لست في موقع يمنحك

الحق أن تحكم عليها. صحيح ما قالته كاتيا، فأنت تناقش المسائل والقضايا بآراء جاهزة.

- اعذريني - وانحنى ميخايلوف - اعذريني يا سيدتي الطيبة، لأنني

أهنتك، لقد ذهب من ذهني أن «النقاش مع امرأة، مثل نضح الماء

بالغريال».

ومرّ بالقرب منهم جندارم (مراقب المحطة)، تبدو عليه الرصانة وهو

يرن بمهمازيه وسيفه. توقف في منتصف الصالة، ومسد شاربيه الشائبين

وقال بصوت جهوري خشن:

- أرجو أن تستعدوا للسفر. ستطلق القافلة العسكرية بعد نصف ساعة من رصيف المحطة الثاني. ثم توجه نحو المجموعة الطبية وقال مختتماً حديثه: أما أنتم أيها السادة المتطوعون وأيتها الأخوات الطبيبات، تستطيعون الذهاب إلى صالة الدرجة الثانية، فهناك الوضع أفضل بكثير من هنا. لماذا عليكم أن تتزاحموا مع الجنود هنا. فرد عليه ميخايلوف بصوت عال ليسمعه الجميع:

- اسمح لي أن أعلمك يا سيدي الجندارم، أننا بين هؤلاء الجنود كما عبرت، نشعر بارتياح أكثر مما لو كنا في وسط الجمهور النبيل. وحقق الجندارم بعينه وقال: لماذا تقول ذلك أيها السيد المتطوع؟ فأنا قدمت لك اقتراحاً لطيفاً أما أنت فتتبع...

وألقى نظرة عدم ارتياح إلى الشباب، وبنفس تلك الخطوة الرصينة عاد من حيث أتى.

فجأة، دوى صفير القطار، فراح الجنود والنساء المودعات يتزاحمون على المداخل والمخارج إلى رصيف المحطة.

- والآن حان الوقت يا زملائي - قال الطالب المرح.

- انتظر قليلاً - قال آخر - سنلحق... سيخرج الناس ويخفّ

الازدحام.



في هذه اللحظة ظهر هيكل إنسان غريب قرب باب المحطة في معطف أسود طويل، وقبعة سوداء مشدودة بقوة على جبينه، حتى بالكاد تستطيع تمييز عينيه اللامعتين ببريق حي.

وقف قرب الباب ينظر إلى الناس بانفعال، كأنه يبحث عن أحد ما. وفجأة هرعت كاتيا إليه من مكانها:

- فيودور ميخائيلوفيتش، صاحت كاتيا بصوت رنان، حتى أنه طغى على ضجيج أصوات الصالة. فيودور ميخائيلوفيتش، هذا ما توقعته، أنك لابد ستأتي - وضغط دوستوفسكي بخفة على يدها - وقال: - توقعي، توقعي وانتظري.

- طبعاً يا فيودور ميخائيلوفيتش، أنا مغمورة بالسعادة لرؤيتك... لماذا نقف هنا؟ لنذهب، لنذهب، وأمسكت كاتيا دوستوفسكي من ذراعه وقادته إلى الطلاب وقالت: يا سادة لقد جاء فيودور ميخائيلوفيتش بنفسه إلى هنا. وأنت يا ميخايلوف كنت تقول... آه منك يا رجل الكتب. مع أنك طيب القلب وذكي، لكنك تعطي نفسك مسحة زائدة من سعة الاطلاع. وهذا سيئ جداً أن تفعل ذلك - وصفقت كاتيا بيديها - يا إلهي أي هراء أتحدث به الآن! لقد فقدت السيطرة على نفسي من شدة السعادة. كانت كاتيا تبدو جميلة في انبعاثها، حتى أن الجميع أحبوها في هذه اللحظة لاشعورياً.

- آه يا كاتيا، كاتينكا، يا صاحبة الروح العظيمة - هرعت تانيا إليها واحتضنتها وراحت تقبل خديها الورديين. ابتسم الجميع، وكان حملاً ثقيلاً قد أزيل عن أكتافهم، وصافح دوستوفسكي الشباب يداً بيد بكل احترام.

- أما أنا فأقول - تبدل وجه ميخايلوف كلياً وغابت عنه معالم الاستهزاء وارتسمت عليه ابتسامة وضاءة - أنت محقة يا كاتيا بالنسبة لسعة الاطلاع. وأنا أقدر عالياً قدوم فيودور ميخائيلوفيتش، كما أقدر

عالياً «مذكرات من بيت الموتى» و«المهانون المذلون» و«الجريمة والعقاب» و«المراهق» أنا لا أقرؤها فقط، بل أتمناها وأقدرها. ونحن ممثلو الشباب الروسي نفتخر بأدبنا، ونريد أن نرى فيه انعكاساً لمثلنا العليا وآمالنا.

أصبحت الصالة شبه فارغة، وتناهت إلى أذانهم أصداء آلات الأوركسترا العسكرية من الأبواب المفتوحة، وهرع نحو الطلبة طبيب عسكري شاب، وقال:

- ماذا تنتظرون يا زملاء؟ سنطلق القطار بعد خمس دقائق.

ثم أمرهم رئيس الأطباء بالذهاب فوراً إلى العربات... ولوَّح بيده وركض إلى رصيف المحطة، فقال ميخايلوف لدوستوفسكي مودعاً:

- نتمنى لك الصحة والسعادة يا فيودور ميخائيلوفيتش، وصافحه

بحرارة، ثم صافحه بقية الطلاب.

- نعم، نعم، كان دوستوفسكي مبتسماً، يرد على كلمات

الطلاب، شكراً لكم يا سادة لن أنسى كلماتكم... كنت وما زلت أحترم الشبيبة الروسية، أما ما يتعلق «بالشياطين»... فتلك قصة طويلة،

سنتكلم عن ذلك عندما تعودون... سأجيب على أسئلتكم برواية جديدة - وحقق في وجه كاتيا، ثم أضاف: برواية تختلف كلياً.

وسمَّع صوت الضربة الثانية للجرس النحاسي، وجلجل دوي صفير

القطار، فحمل الطلاب حقائبهم.

- وداعاً يا فيودور ميخائيلوفيتش، وداعاً. وأمسك دوستوفسكي

بيد كاتيا ومن جديد رقَّ قلبه على تلك اليد النحيلة الرقيقة بعروق دمها الزرقاء. يد طفلة تماماً وأخذ تلك اليد وقبَّلها بحبيطة وحذر شديد، وكأنه

يقبل إيقونة رائعة الإبداع.

وفي المساء، وعلى ضوء الشموع، كتب دوستويفسكي في مكتبه  
مسودة المخطوطة.

«إن ترميم وإصلاح وإنقاذ المجتمع الروسي بشكل جذري، يقع على  
عاتق المرأة الروسية. لقد برهنت إلى أي حد تستطيع أن تسمو وتفعل. فعلى  
الأرض الروسية تعيش الكثيرات من النساء بقلوبهن العظيمة، القدرة  
على العمل الاجتماعي وعلى التضحية بالروح».



# درب نيكرا سوف الأخير

اقترب عام 1877 من نهايته... واستيقظ دوستوفسكي في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول وهو يحس بقلق غامض. مبهم. لقد أحس بذلك القلق ليلة أمس عندما استلقى لينام، لكنه لم يستطع، فأخذ يقرأ «البؤساء» لهيجو. لقد ظل طوال الليل يستيقظ بين لحظة وأخرى. واليوم استيقظ باكراً، ترى ما السبب؟  
ما زال الجو معتماً غائماً.

أشعل دوستوفسكي الشمعة، وارتدى ثيابه، وسمع أصدقاء موسيقا استعراضية تناهت إلى أذنيه عندما راح يشرب الشاي. وهرع إليه أحد معارفه وأخبره بوفاة نيكرا سوف.

لهذا السبب كان دوستوفسكي قلقاً طوال يوم أمس واليوم. إذ كان يعرف أن نيكولاي ألكسيفيتش أصبح بدون أمل في متابعة الحياة. لقد زاره بنفسه.. ومع ذلك كان موت نيكرا سوف مفاجئاً له.

الريح تعصف في شوارع المدينة. والصقيع..  
وعلى عربة أجرة كان حوذي في معطف عسكري موقع يمسح الزلاقات وراء فرسه الرمادية.

- لا تغضب أيها السيد - قال الحوذي مخاطباً دوستوفسكي - لم أرَ راكباً واحداً منذ الصباح الباكر. ولهذا بردنا جداً.

- حسنٌ أيها الجد، أنا لست ذاهباً إلى حفلة زفاف. لقد توي في أحد أصدقائي الطيبين.

- هل مات صديقك؟ لقد خلص من الحياة، فله ملكوت السموات.

- صدقت أيها الجد بقولك: «خلص» فحياتنا ثانية.

احتشد الناس قرب منزل نيكراسوف.

اصطفت العريات بكافة أنواعها وأشكالها.

ومرّت قرب دوستويفسكي فتاة في معطف فراء، تمسك بمنديل

قرب عينيها.

وكانت الشموع مشتعلة قرب رأس المرحوم في القاعة التي تمدد

فيها، ومن خلفه الأناولين<sup>1</sup>. قرأ الشمساس مرتلاً جزء البسملة من الكتاب

المقدس. وكانت آثار آلام الموت التي عانى منها المسجى ما تزال عالقة على

وجهه.

اقترب دوستويفسكي وقبّل يد نيكراسوف الباردة، وانحنى

تكريماً له، ثم ابتعد جانباً ليفسح الطريق للآخرين. وأراد أن يعزي زوجته

المرحوم السيدة زينaida نيكولايفنا، لكنه لم يقدم على ذلك عندما

شاهد وجهها (الطافح بالحزن). بأي شيء يواسيها؟

وقرأ المبسمل بشجن.

- هذا الإنسان، لن يخطئ بعد الآن...

وقف دوستويفسكي ورسم إشارة الصليب على صدره ثم خرج

بهدهوء...

اجتمع حشد كبير من الناس أمام بيت نيكراسوف وحشد من

الشبيبة، إذ كنت ترى في كل مكان السدارات الطلابية، سدارات

طلاب الجامعة ومعاطف طلاب الثانوية.

لم يستطع دوستويفسكي العمل في هذه الليلة أيضاً.

- هذا الإنسان لن يخطئ بعد الآن.

<sup>1</sup> الأناولين: الكرسي الذي يوضع عليه الكتاب المقدس أثناء القراءة. م.

خافت أنا غريغوريفنا أن تترك زوجها وحده في المكتب، فدخلت بهدوء وجلست على طرف الديوان. لقد كانت تعرف جيداً كم كان دوستويفسكي يقدر الشاعر المرحوم - كانت خائفة أن يقع في نوبة الصرع من حزنه الحاد على موت نيكراسوف. ولم يقل لها دوستويفسكي أية كلمة عندما، دخلت المكتب، سوى أنه أوماً برأسه مرحباً بقدمها.



على الطاولة كانت خطة عمل لعشر سنوات، مكتوبة بتاريخ 24 كانون الأول. كانت أفكاره تخفق بشدة في دماغه: «لقد تعذب نيكولاي الكسيفيتش وانتهى... أما أنا فلدي خطة لعشر سنوات. طبعاً، حبذا لو عشت أكثر... لكن هل يمكن توقع، متى يحدث ذلك؟ متى تأتي اللحظة المحتمة؟»

يمكن أن يكون الموت جاثماً هنا، خلف هذه الأريكة... لا، لم يستطع فيودور ميخائيلوفيتش العمل في هذه الليلة.

ويقترب دوستويفسكي من أحد رفوف الكتب، ويتناول ثلاثة كتب للشاعر نيكراسوف، يحملها بكل حنان. يفتح الجزء الأول، ويبدأ بقراءة أشعار نيكراسوف بصوت مسموع.

تحبس أنا غريغوريفنا أنفاسها وتستمع. كان يقرأ أشعار نيكراسوف بصوت خاص، يمتص تلك السطور، وفي نفس الوقت يتذكر أوقات لقاءاته مع المرحوم، بالدقائق.

يعود الزمن إلى الخلف... كانت أحلاماً مجيدة رائعة. وكانت نزوات وشكوكاً تعود لسنوات الصبا.

لم يكن دوستوفسكي عاطفياً في طبعه، لكنه الآن يعرف أن المسجى في تابوته في منزل كرايفسكي هو نيكراسوف الصديق. «التراب موجود فيه تراح».

تذكر أيام عمله في رواية «الناس الفقراء»، وتصور كيف هرع إليه الشاب الشاعر منفعلاً مع غريغوريفتش، بعد أن قرأ مخطوطته «الناس الفقراء» وبأي صدق، بأي حب حضنه - نعم لقد حضن نيكراسوف دوستوفسكي الحائر آنذاك، لا يستطيع أن ينسى ذلك الموقف. عندما قال نيكراسوف:

- أنت لست موهوباً فقط، بل أرفع بكثير من ذلك.

وتوهج أمام عيني دوستوفسكي صورة وجه آخر - وجه نحيل - دقيق الملامح، بعينيهِ البراقتين، وجه ضمير الأدب الروسي، وجه فيساريون غريغوريفتش بيلينسكي.

هنا لحظات في الحياة، لا يستطيع أي شيء محو ذكراها، وتصادف بعض الناس، الذين يشرحون القلب، ويملؤونه بالسعادة لمجرد ذكر اسمهم. عندئذ يبدو الإنسان سعيداً مهما كان تعيساً، لقد كان نيكراسوف وبيلينسكي من هؤلاء الناس.

طوق دوستوفسكي ركبتيه بيده وشد عليها. وعيناه جافتان، كان البكاء في قلبه، هذا أشد ألماً، إذا كان البكاء في القلب.

وينهض دوستوفسكي ويخطو داخل الغرفة يميناً ويساراً، ومن جديد يبدأ بقراءة أشعار نيكراسوف، ومن جديد تستحوذ عليه أفكاره. «طبعاً نيكراسوف ليس بوشكين، فهو أقل موسيقية في أشعاره من أشعار بوشكين أو ليرمونتوف، لكنه، غالباً ما يضاهاهما في

المقاييس الشعرية. أحياناً يبدو، جافاً بلاغياً. إذاً، ترى أين يكمن سر قوته؟ ما الذي يجبر الناس أن يروا فيه شاعراً عظيماً؟ شاعر الشبيبة المحبوب؟ أن الشباب أكثر صدقاً وأكثر استيعاباً من غيرهم دائماً.

أين السر إذاً؟

- أتعلمين يا أنيا - يتوجه دوستوفسكي بالحديث لزوجته - لنقل أنه كان هناك شاعر اسمه توتشيف - شاعر عميق موهوب - شاعر فيلسوف، لكننا مع ذلك لا نستطيع مقارنته بشكل من الأشكال مع نيكراسوف، من حيث أهمية تأثيره على جمهور القراء.

إن قوة نيكراسوف - كان صوت دوستوفسكي المبحوح واضحاً جلياً في سكون المكتب - تكمن في شعوره بحب الشعب. كان يبحث عن الإنقاذ في الشعب، في الفلاح الروسي، في الموجيك الروسي.

وعندما كان نيكراسوف، يقع في ساعات الكرب، عندما تحاصر أنفاسه دناءة المحيط حوله، كان يشعر بالاختناق من الآفات الضيقة الأفق، ومن مكائد المراقبين المجانين. كان يبحث عن النجاة في الشعب، ويجدها فيه. كان يجد النجاة في طموحات الشعب في شجاعته، في عقله، في إيمانه - ويفكر دوستوفسكي قليلاً ثم يتابع: نعم إننا نسامحه على كل شيء، لأنه ظل طوال حياته يعمل في خدمة الشعب، لكن هل يوجد شيء نسامحه عليه فعلاً. كيف تظنين يا أنيا؟

الوقت يمضي... وصوت صفحات الكتاب تفتح وتقلب واحدة إثر أخرى. كان دوستوفسكي يقرأ أشعار نيكراسوف.



كان الصقيع شديداً والسماء متلبدة بالغيوم، والبيوت داكنة في  
الثلاثين من شهر كانون الأول. وموكب الجنازة يشير ببطء على شارع  
ليتيئني بروسبكت.

واصطف الطلاب والطالبات حول أطراف القناطر، وتسلق البعض  
عليها، والأرصفة مزدحمة بالفضوليين، وأولاد على أعمدة المصابيح  
وأخرون على السطوح.

وعربة الحداد تسير ببطء شديد، والأصدقاء يحملون تابوت  
المرحوم. مشاعل، أكاليل. كانت الأكاليل كثيرة يتوسطها إكليل  
بشريطة حمراء كتب عليها بأحرف ذهبية:

«إلى ن. آ. نيكراسوف من الاشتراكيين»..

كان نيكراسوف يسير على دربه الأخير كبطل منتصر.

والكورس يرتل بحزن عميق «الذكرى الأبدية»، وتتصاعد  
الكلمات الحزينة إلى قبة السماء المثقلة بالغيوم.

وكانت أنا قلقة على زوجها، إذ كان يسير حاسر الرأس  
خلف العرش.

- ستمرض يا فيديا، لنذهب إلى البيت، وسنلحق قدام المرحوم  
بعد ساعتين إلى نوفوديفجي.

- انتظري يا أنيا. سنصل حتى الإيطالية. وتسمع خلف  
دوستويفسكي أصوات متذمرة.

- وهنا لا نستطيع أن نسير دون حراس النظام!

- لو أنهم، لا ينجسون دربه الأخير فقط.

كان كبار رجال الجندرها ، يحاصرون صفوف الطلاب من كلا  
الجهتين بخيولهم ، بخوذهم وسيوفهم العريضة البراقة المنذرة في الضباب  
الثلجي.

امتلات المقبرة بالناس ، الذين أصغوا إلى كل كلمة قيلت في  
صمت وإجلال.

«لن هذا الصوت الرنان المهتاج»؟ - سأل دوستويفسكي بنفسه  
ونظر إلى الخطيب. كان الخطيب طالباً ذا وجه ذكي ، جميل وملهم ،  
كما وصفه دوستويفسكي. وتكلم الخطيب عن نيكراسوف  
كديمقراطي عظيم وصديق بيلينسكي ودوبرولوف والناشر  
«للمعاصر» ولد «المذكرات الوطنية» ومؤلف «الطرق الحديدية» ، عن  
نيكراسوف الذي جسّد في أشعاره ، ليس فقط آلام الشعب بل حنقه  
وشجاعته وبأسه أيضاً. وعم ضجيج مؤيد لكلام الخطيب ، عندما أنهى  
الطالب كلمته<sup>1</sup>.

وبعد ذلك تكلم آخرون ، لكن لم يكن دوستويفسكي يستمع  
إليهم. واقترب من القبر الذي ما زال مفتوحاً ، والمحاط بالشباب والشابات.  
كم كانت عيونهم عظيمة! كم من الحب في عيونهم! التي تنظر إلى  
تابوت الشاعر.

وكان دوستويفسكي يزفر أنفاسه بصعوبة وهو يفكر. ماذا  
سيقول عن نيكراسوف؟ ماذا يقول هو الأديب الروسي المعروف؟ ماذا  
يقول لهؤلاء الشباب. مستقبل روسيا؟ ماذا يقول؟ لقد لاحظوا وجوده ،  
وكانوا ينتظرون كلمته.

<sup>1</sup> الطالب هو : غ. ف. بليخانوف.

بدأ دوستويفسكي كلمته بصوته الضعيف المخنوق.

وتحدث في كلمته عن نيكراسوف، كشاعر شعبي، كشاعر حزين. وقال إنه سار على الدرب، الذي سار عليه بوشكين، وقال إننا نضعه بعد بوشكين وليرمونتوف مباشرة لأهميته وعند هذه الكلمات عم الصراخ مخترقاً السكينة.

- أسمى، أعلى..

وعاد دوستويفسكي إلى بيته على الزلاقات، لم يكن راضياً عن نفسه «كان عليّ أن لا أقول ذلك، لا يجوز مناقشة من أعلى وأرفع قرب قبره المفتوح»<sup>1</sup>.

وشعر بالأم في صدغيه، وفي روحه حزن وغموض.



<sup>1</sup> قام دوستويفسكي بتقديم تحليل ونقد لأعمال نيكراسوف في «يوميات كاتب».

# داروفوي

كان إيفان غريغوريفتش سنيتكين، شقيق آنا، يملك مزرعة في محافظة كورسك تدعى «مالي يريكول» وفيها منزل صيفي، تحيط به الأشجار، إضافة لمزرعة حيوانات حلوبة.

وكان سنيتكين قد أنهى الدراسة في أكاديمية الزراعة، وتزوج من فتاة غنية، والآن يخصص كامل وقته لإدارة شؤون المزرعة بطرق علمية معاصرة، ولهذا ازدهرت مزرعته كثيراً.

وكان دوستوفسكي قد استأجر منزلاً في المزرعة لقضاء فترة الصيف، وكانت آنا والأولاد هناك. وكان عليه أن يصل إليهم قبل فترة، لكنه تأخر بسبب انشغاله في «يوميات كاتب».

وقرر دوستوفسكي، وهو مسافر إلى زوجته أن يخطف نفسه ليومين لزيارة قرية الأباء في داروفوي، حيث تعيش فيها شقيقته فيرا. لقد أحس فجأة أن فكرة «العودة إلى سنوات الطفولة» قد تلبسته كلياً. ولذلك توجب عليه أن ينتقل إلى العربة القذرة الرطبة القديمة المتوجهة إلى «داروفوي».

وجلس فيها وراح ينتظر تلك اللحظة التي سيرى فيها أماكن طفولته الحبيبة هناك، ثم انتقل دوستوفسكي من المحطة على عربة مرقعة عبر الطريق الوعرة إلى داروفوي. وفي الطريق سال دوستوفسكي سائق العربة!

- كيف صارت الحياة هنا إن شاء الله أفضل؟

فأجاب الفلاح العجوز ذو التجاعيد البنية على وجهه، والذي يرتدي قميصاً أزرق مبرقشاً، وهو يمط الكلمات بشفتيه:

- الحالة خانقة ، لكن مازلنا نتنفس. وتفحص بطرف عينيه المسافر معه. ولاحظ دوستوفسكي على وجه الفلاح علائم الحيلة والحذر والفضول: «من تكون يا ترى ، ألسنت من الحكومة».

- لا تخف أيها الجند فأنا لم آت لقضية حكومية - قال دوستوفسكي ليربح الفلاح ، فأنا أسأل من أجل نفسي. فهنا تعيش شقيقتي الملاكة فيرا ميخائيلوفنا إيفانوفنا.

- آ... ويهز الفلاح برأسه - إذا أنت شقيقها السيد فيودور ميخائيلوفيتش.

- نعم بنفسه - انتعش دوستوفسكي - لقد عرفتي أيها الأخ.

- لقد شخت يا بني - ولملم الفلاح نفسه - إلى أي حد قد كبرت! يبدو أن الحياة قد دعكت روحك كثيراً!

- نعم أيها الأخ ، الحياة لم تبق في جسدي مكاناً حياً إلا ودعكته - وافق دوستوفسكي على قول الفلاح.

- لقد عرفتك منذ طفولتك - قال السائق الفلاح - كنت أذهب أحياناً إلى تشيريموشنو بين فترة وأخرى. وأنا أذكر ميخائيل إندرييفيتش - كان سيداً قاسياً. نعم. - صمت الفلاح وتطلع دوستوفسكي إلى منخفض السهل المحيط بهم ، وإلى السماء القريبة المعلقة فوقهم ، وإلى أشجار البتولا التي بدأت تذبل ، إذ أحست بقدم الخريف مبكراً هذا العام ، قريباً ستصفر الأوراق ثم تتساقط. كم كان ذلك محبباً لدوستوفسكي - هذا البلد ، ذلك هو الوادي ، وهناك القرية والبيوت. يا إلهي ، أية بيوت هذه ، سوداء ، نواظدها معوجة مائلة ، والقش على سطوحها ، وخلف القرية كانت الحقول المزروعة بالقمح ، الذي لم ينم جيداً هذا العام.

ويتنفس دوستوفسكي الصعداء، ويتذكر إحدى لوحات الطفولة  
لاشعورياً.

كيف ركض إلى أحد البيوت الفلاحية، وكيف كان قلبه ينبض  
هلعاً بعدما تراءى له ذئب في طرف حرش. ركض إلى الفلاح العجوز  
ماريه، الذي هدأ أعصابه، وكيف لا يهدئ ابن سيده؟ لن ينسى  
دوستوفسكي أبداً ذلك الحنان الفلاحي، وتلك الطيبة الفلاحية. لتد  
أصبح ماريه بالنسبة لدوستوفسكي نموذجاً لا ينطمس ذكره للشعب  
الروسي. نعم لا ينطمس، وتدمع عينا دوستوفسكي، يلتفت جانباً ويشد  
الفلاح حبال الأعنة وحدث دوستوفسكي:

- إن الله لا يعطي محاصيل كثيرة - ويشير بعضا سوطه إلى  
الحقول - انظر بنفسك... لقد أهلكنا المطر... سنبقى من دون خبز، والآن  
هذه الحرب مع الأتراك... فماذا أقول؟ إن حياة المويك صعبة للغاية.

هي هكذا دائماً، كم من المرات سمع دوستوفسكي هذه العبارة  
«سنبقى من دون خبز». سمعها في أحاديث والده ووالدته، في رسائل  
شقيقته، في أحاديث ومناقشات ملاك الأراضي - إنه دائماً يسمع تلك  
الشكاوى المرة بخصوص المطر، أو بخصوص الجفاف.

ويتذكر دوستوفسكي تلك المزارع الألمانية المهندسة بدقة  
متناهية، والتي تشبه بعضها، بباحاتها النظيفة وبيوتها القرميدية، التي  
شاهدها أثناء تجواله في ألمانيا.

الألماني ذكي، فليده كافة آليات السقاية والري، وكافة أنواع  
الأسمدة. إن روسيا تحتاج لكثير من العمل ولزيادة إنتاجية محاصيل  
الأرض لسنوات طويلة حتى تصل مستوى ألمانيا في الزراعة.

ومع ذلك كان دوستوفسكي يؤمن بأن هذا الفلاح الروسي، ووطنه الكبير هذا، مقدر له أن يقول كلمته العظيمة للعالم الأوروبي بأكمله. وأضاءت الشمس التي أطلت من بين الغيوم، السهل والوادي والقرية... فرحت الشقيقة كثيراً بوصول فيودور ميخائيلوفيتش، لكنها سرعان ما بدأت تشكو، بعد أن رحبت به. وراحت تقول وهما يشريان الشاي: العمل غير منتج، والمحاصيل سيئة والديون، والمرض... ثم سألتها عن آنا غريغوريفنا وعن أعماله الأدبية.

- أنت مشهور الآن يا فيديا، ولا ترغب حتى بالنظر إلينا نحن الفقراء المنحطين، فأنت جنب إلى جنب مع الوزراء والأمراء. شكراً لأننا غريغوريفنا الحبيبة، التي أرسلت شقيقنا ليرى عش الطفولة، لكنني لا أعرف ماذا أقدم للضيف الحبيب؟ لا بد أن آنا قد عودتك على الموائد العامرة، أما لدينا فلا يوجد سوى مطبخ ريفي بسيط، فأرجو أن لا تؤاخذني.

وأطلت الشمس بأشعتها الكسيحة من خلال النافذة، وتراءى لدوستوفسكي أن غطاء المائدة المزخرف، ذا الحاشية الحمراء معروف لديه منذ الطفولة - آه لو يستطيع أن يعود على تلك الأيام، لعدد من الساعات فقط.

لماذا تقول الشقيقة هذه الكلمات المملة؟ من أجل أي شيء تقولها؟ هل يعقل أن هذه المرأة السمينة الكبيرة السن، هي نفسها الشقيقة فيروتشكا؟

وتابع فيرا حديثها عن ضرورة إصلاح البيت، أما هو فكان يبتسم لذكرياته.

خلف النافذة - كان السهل المنخفض، والحقول الشحيحة، والقرية الفقيرة - قرية داروفوي - الأم.

# يوميات كاتب

كان دوستوفسكي سعيداً لنجاح «يوميات كاتب»، إذ كان الجمهور يتربح كلمته، حتى غدت «اليوميات» حدثاً اجتماعياً وتوقف دوستوفسكي عن كتابة «اليوميات» أثناء عمله في «الإخوة كارامازوف»، إذ كان من الصعب متابعتها لضيق الوقت ولصحته المتدهورة، إضافة لرده على الرسائل التي ترد إليه كالطوفان، ومن المخجل أن لا يرد عليها. كيف يفعل ذلك، ويرى أن من يكتب إليه يفتح له صدره، كيف يستطيع أن لا يرد عليه؟ فكان يكتب ويجيب.

أحياناً كانت تتوارد إليه رسائل تطمن به، لكنها قليلة. كان يكتب إليه أناس بعناوين وأسماء، كانوا يكتبون له، أنه هو الكاتب المحترم والمحبوب من قبل القراء، يقوم بالدعاية لأفكار متخلفة، مضرّة، وهو يغمض عينيه عن دناءة السلطة المستبدة، وعن جشع السلطات الدينية، ولا يرى سخافة تلك المثل العليا المسيحية، أنه لا يرى ذلك الشرخ الكبير في المجتمع الفلاحي، ولا يرى أن حلمه بالشعب - المؤمن بالله - مجرد حلم صياني لإرضاء الضمير: لينظر جيداً إلى القرى، فهناك الإقطاع، وهناك الفقر، وهناك يموت الموجيك، ويتهمون النهليستين<sup>1</sup>، ويرمون السبب على ظهورهم.

كانت مثل هذه الرسائل تقلق دوستوفسكي ولا تدعه ينام، وأحياناً توصله حتى الوقوع في النوبة المعتادة. وكانت أيضاً معاشات مسرة مع «اليوميات»...

<sup>1</sup> انهليستية: «العدمية» تعني إنكار كل القواعد والمبادئ والتقاليد والقوانين والتراث الثقافي للعصور السابقة. م.

كانت المحكمة تعالج قضية الفلاحة الشابة كورنيولوفا، التي لم تبلغ سن الرشد بعد، التي اقرت جريمة برميها طفلة زوجها، الرجل الرمل الرصين، المؤمن الشفيل، من الطابق الثالث، ومن حس الحظ أن الطفلة بقيت على قيد الحياة. وذهبت الشابة بنفسها إلى الشرطة واعترفت بذلك. وأصدرت المحكمة حكمها عليها. لم يكن دوستوفسكي متفقاً ورأى المحكمة. واستطاع اللقاء مع تلك المرأة في السجن، ودخل في أعماق المسألة التي كان يحس بها في قلبه، وأظهر دوستوفسكي أن كورنيولوفا لم يكن لديها النية المتعمدة لاقتراف الجريمة، إذ لم تسيء للطفلة بأي شيء من قبل، وهي لا تعرف بالضبط كيف حدث ذلك: «كانت قد تخاصمت مع زوجها خصاماً شديداً في ذلك اليوم. ولم تعر المحكمة انتباهها، إن كورنيولوفا كانت حاملاً قبل المحكمة. ولم تجر المحكمة الكشف الطبية. أما الزوج فتحدث أمام المحكمة بصدق وطيبة، وصادق على حديث زوجته، وهكذا شكلت المحكمة لجنة طبية بإلحاح من دوستوفسكي للقيام بالكشف الطبي، شارك فيها عالم النفس الشهير ديركوف، وأقرت اللجنة أن ما جرى كان تحت تأثير «انفعالات الحمل»، وكانت النتيجة أن أعادت المحكمة النظر في حكمها وبرأت السجينة. ثم جاء الزوج والزوجة إلى دوستوفسكي وشكراه على ذلك.

كان دوستوفسكي يشاهد بنفسه، يكف يمكن الحصول على نتائج إيجابية، بل عجيبة، إذا تعاملوا مع الأحداث بإنسانية؟ نعم بإنسانية. كل ذلك تعرف عليه من خلال زيارته المتكررة للإصلاحات، حيث يريون الأحداث المجرمين.. كان يقوم بتلك الزيارات مع المحامي الشهير

والإنساني الكبير أناتولي فيودورفيتش كوني. ولا نستطيع تذكر كل ما نشره من أحاديث مع القراء، ولقد نشر أيضاً قصة «الوديعة» و«حلم إنسان مضحك»، وعن الموجيك ماريه (عن طفولته في داروقوي)، وكتب عن الشاعر المرحوم نيكراسوف، وعن اللقاء الذي لا ينسى مع فيساريون غريغوريفتش بيلينسكي...

إن دوستويفسكي سينتهي من كتابة «الإخوة كارامازوف» وسيعود بنشاط جديد إلى «اليوميات»، ربما كان لا يفعل ما يجب فعله. لكن كان يؤمن أن ما يفعله من أجل الإنسان، من أجل كرامته. ويقول كلمته من أجل روسيا... إنه مؤمن بذلك، مؤمن. إذا لم يكن مؤمناً بذلك فلماذا «اليوميات»، ومن أجل أي شيء؟



الناقد بيلينسكي

# يجب أن أعيش

اعتادت أنا غريغوريفنا على الحياة في ستاريا روسًا، وأحب دوستوفسكي تلك المدينة الصغيرة. وانتقلت الأسرة في عام 1875 من منزل غريبي الصيفي (الذي أفاد دوستوفسكي مستقبلاً في وصفه لمنزل العجوز فيودور كارامازوف) إلى منزل الأدميرال ليونتيف الواسع الكبير لقضاء الخريف والشتاء بعد أن تعثر إيجاد شقة ملائمة لهم في بطرسبورغ.

وأنجبت أنا في منزل ليونتيف طفلها الأخير - اليوشا (الأكسي) الذي تعلق بأبيه كثيراً بعدما كبر قليلاً. فكان كلما ذهبت المريية إلى مكان ما، ينتهز الفرصة ويهرع إلى مكتب أبيه.

مع أن دوستوفسكي كان لا يصبر على مضايقة الأولاد له أثناء عمله، غير أنه استثنى اليوشا من ذلك، فكان يستقبله بابتسامة فرحة، أما الطفل فكان يستند إلى ركبتي والده، ويطلبه قائلاً:  
- بابا - ساسا (يعني ساعة).

وكان الأطفال بحاجة للحليب الطازج، ولذلك استأجرت أنا من أحد الناس بقرة حلوب لموسم واحد، وقد دفعت خمسين روبلاً للصيف. وكان فاغنر، البروفيسور في جامعة بطرسبورغ، موجوداً في ستاريا روسًا للعلاج، وفي أحد اللقاءات قصص على أنا كيف التقى بفيودور دوستوفسكي: «قابلته دوستوفسكي دون ترحيب، إذ كان يسأل المارين، إذا كانوا قد شاهدوا بقرة سمراء داكنة».

- لماذا تسأل عن بقرة سمراء داكنة يا فيودور ميخائيلوفيتش؟  
- سألته بعد أن ظننت أن فيودور ميخائيلوفيتش يريد أن يعرف طبيعة

الطقس ليوم الغد من لون أول بقرة يراها ، وقد انطلق إلى هدفه بكل عزيمة وإيمان.

- كيف ، لماذا تضايق - دوستوفسكي - أنا أبحث عن بقرتنا ، لقد عادت كل البقرات إلا بقرتنا».

- هذا شيء عجيب يا أنا غريغوريفنا ، فنان الكلمة العظيم ، صاحب العقل والخيال الخصب بالمثل العليا ، يسير في الطرقات باحثاً عن بقرة ما.. وأنهى فاغبر قصته.

سارت الحياة في ستاريا روساً برتابة اعتيادية ، وكالعادة كان دوستوفسكي يعمل في الليل ، وينهض في الحادية عشرة ، كان يخرج ويشرب القهوة ويلعب الأطفال ، وكان يتحول إلى طفل مثلهم أثناء اللعب.

وفي الظهيرة يملي على أنا مخطوطات روايته ، ثم يتناولون الفطور ويخلدون للراحة. وفي الثالثة والنصف ، كان دوستوفسكي يذهب إلى بقاليات وحوانيت بلوتنيكوف ليشتري مما أحضروه من بطرسبورغ من مواد غذائية. وبعد أن يعود يلعب الأولاد من جديد ، وتعم السكينة البيت في الساعة العاشرة مساءً ، فيجلس دوستوفسكي مع زوجته في الغرفة قليلاً ثم يذهب إلى مكتبه. وفجأة انقطعت سكينة هذه الحياة بوفاة ابنه أليوشا ، الذي لم يبلغ الثالثة من عمره بعد.

مات الطفل إثر نوبة صرع قوية. وحزن دوستوفسكي بشكل مأساوي على فقدان طفله ، إذ كان يدرك أنه قد أصبح عجوزاً ولن يستطيع إنجاب الأطفال بعد الآن ، أما أنا فكانت تعمل جاهدة لتهدئتهن وخاصة أن النقاد كانوا يقللون من أهمية دوستوفسكي ومن أهمية

مؤلفاته، دون أن يفهموها. غير أن القراء كانوا يتعلقون بها عاماً بعد آخر بقلوبهم وعقولهم. إذ كان دوستويفسكي يستمد قواه الروحية من الناس البسطاء، ويقنع نفسه قائلاً: «يجب أن أعيش ويجب أن أعمل»<sup>1</sup>.



أنا دوستويفسكي (زوجة الكاتب)

---

<sup>1</sup> في عام 1877، اشترى دوستويفسكي منزل غريبي الصيفي المؤلف من طابقين، إذ كان يفضل له لموقعه على ضفة نهر بيريريتس. هذا المنزل الذي أصبح متحف دوستويفسكي فيما

بعده. م.

# فتاة على الرصيف

سار دوستوفسكي في ذلك الزقاق، قرب سوق أبراكسين وفوزنيسينسكي، باحثاً عن أمكنة المدينة، التي يكثر فيها الفقر والدعارة، وتزدهر الجريمة.

كان الجو بارداً، فرفع دوستوفسكي ياقة معطفه مثل شاعر محبوب، إذ كان الوقت أواخر الخريف متأخراً وقد هاجرت الغريان «منذ زمن بعيد، قاصدة أمكنة الدفء والشمس».

وكانت المصاييح بالكاد تستطيع إضاءة يافطات محلات الشرب والدعارة، إذ كانت في تلك المحلات تسير حياة خاصة، أما الشارع فكان فارغاً، وقد خيم عليه الصقيع.

فجأة استرعى انتباه دوستوفسكي صوت نشيج فتاة صغيرة، لم تكن تطلب شيئاً ولم تشك من شيء، بل كانت تطلق نشيجاً خائفاً.

واستطلع دوستوفسكي المكان بدقة، وبصعوبة استطاع تمييز فتاة صغيرة على ركيزة في الشارع، لا يتجاوز عمرها ثماني سنوات.

كان وجهها نحيلاً، نحيلاً جداً... عيناها سوداوان واسعتان، وتغطي شعرها بمنديل ممزق، وفي قدميها حذاء عميق، وتلتحف سترة عتيقة مرقعة بغير اعتناء، ومن فتحة الصدر أطل وجه قط أشقر اللون.

- هل أنت تبكين يا طفلة؟ أين بيتك؟ - سأها فيودور

ميخائيلوفيتش مشاركاً همومها - ما اسمك؟

- اسمي ماشكا (ماريا) وأعيش ليس بعيداً من هنا، هناك في القبو

- أجابت الفتاة، وشدت بيدها على السترة المهترئة مع القط.

ظن دوستویفسكي أن الطفلة تبكي لأنها لم تجد أحداً يعطيها صدقةً، ولذلك أخرج محفظته، وأخرج منها روبلاً فضياً ناصعاً.

- أيها القيصر... تلعثت الفتاة إذ كانت ترى هيأته شبيهة بهيئة الكسندر الثاني. يبدو أنك غاضب، جففت دموعها - هل تعطيني هذا. ولماذا؟ هل ستعقصني؟ إن زوج أمي يقرص ساقي بقوة مؤلمة، ويأمرني بالسكوت... بالسكوت...

واليوم جلب معه حساء مهلباً، وقطعة من القماش المزخوف، ثم راح يلوي يدي ويقرصني، واستطعت أن أهرب من بين يديه، وأنا جالسة الآن مع بوزيريك، إنه قط طيب ومتعلق بي، فأنا أطعمه.

- أنا أعطيك النقود لتشتري شيئاً تأكلينه - شرح دوستویفسكي - وإذا أردت أستطيع أن آخذك إلى الماوى.

- لا داعي لذلك، فهناك الحالة صعبة، يضعونهم على الحبال و...

- هل الحالة عند أمك أفضل؟ - سأل دوستویفسكي.

- أفضل، أجابت الطفلة بقناعة. فأمي تمسد شعري وتشفق عليّ، وزوجها سيموت قريباً، هذا ما قاله الطبيب من المستشفى العسكري، سيلتهمه السل خلال أسبوع، وأخذت الروبل وأمسكته بشفتيها ثم وضعت خلف أذنها، ولم تجب على أسئلة دوستویفسكي، حتى أنها أدارت وجهها جانباً ففادرها دوستویفسكي.

الأطفال، الأطفال المساكين، فضلات المدينة، كم شاهد مثل هذه الحالات المأساوية عندنا وفي الخارج، الأطفال الفقراء.



بعد ثلاثة أشهر مرّ دوستوفسكي في ذلك الزقاق وشاهد تلك الركيزة وتذكر أنه التقى هنا بالضبط مع تلك الفتاة، صاحبة القط، وتأججت لديه مشاعر غريبة لمعرفة مصير تلك الفتاة.. ماذا حلّ بها؟ لا بد له أن يدخل الحي ويسأل عنها موظفي الشرطة، الذين يقومون بمراقبة سكان الحي.

دخل دوستوفسكي بناء الشرطة الذي عبق بدخان السجائر، وتناثرت أعقابها، مع كثير من مزق الأوراق على طول الممرات، وتوزع بعض السادة هنا وهناك متسترين بستروسدارات زيتية اللون، مرّ بعض من النساء الشابات المتزينات بقبعات فاقعة الألوان.

انتظر دوستوفسكي دوره في الدخول إلى المكتب.

- ماذا تريد؟ سأل الجالس خلف الطاولة بجلافة.

- أنا بحاجة لاستخراج وثيقة معلومات عن فتاة، فتاة فقيرة محتاجة، يجب إخراجها من البالوعة - قال دوستوفسكي منفعلًا.

- ماذا؟ وأية بالوعة هذه؟ هل أنت في كامل عقلك يا سيدي الكريم. فأنا لا أعرف ربتك.

- أنا ضابط مسرح، هذا من قديم الزمان، أعمل في حقل الأدب، أكتب الكتب والمقالات.

- اسمك؟

- فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي.

نهض المراقب عن كرسیه، إذ كان قد سمع، أن دوستوفسكي يُستقبل من كبار وجهاء الدولة، إن السادة الجنرلات يتناقشون في أعماله الأدبية، وهو بنفسه كإنسان فضولي قرأ «المهانون المدلون».

- أنا سعيد بالتعرف إليك يا فيودور ميخائيلوفيتش، ستحصل على الوثيقة في هذه الدقيقة. قال المراقب وقد بدل من لهجة حديثه.

رن الجرس، ودعا موظفاً شاباً يلبس سترة مع ربطة عنق مخططة زرقاء على الموضة.

- هذا هو السيد الكاتب دوستوفسكي يهتم بمصير فتاة - فأين تعيش؟ أرجو أن تلمي طلبه يا ميخائيل بيتروفيتش.

- وكيف لا، من لا يعرف السيد دوستوفسكي؟

وخلال لحظات أصبحت الغرفة نظيفة، ولعلت طاولة الكتابة حتى البريق، ولم تعد ترى حتى رماد السجائر، وكانت الخزانة مليئة بالكتب الحكومية والتقارير والسجلات. بحثاً مدة ساعتين واستغرب دوستوفسكي صبر ذلك الموظف.

- والآن سننظر في هذا - قال الموظف وهو يفتح سجلاً من السجلات الضخمة. وفيه وجدوا ما قد أدهش دوستوفسكي حتى كاد يفقد صوابه.

ماريا تشودنوفا، عمرها تسع سنوات، مسجلة كيتيمة في شقة الموظف إيفانيتسكي. أليس ذلك الموظف هو نفسه، الذي استضافه دوستوفسكي في المطعم منذ سنوات عديدة؟

- معجزة - قال دوستوفسكي ثم صاح - أوهام، أين والدتها وزوج والدتها.

- لحظة... وقرأ الشرطي الموظف ما كتب لديه من معلومات وأخبره، بأن الأب قد توفي من مرض السل الرئوي، أما والدتها يكثرنا تشودنوفا، فقد توفيت عن عمر يناهز الاثنتين والثلاثين عاماً من حمى

التوفئيد. وقد أخذ الموظف إيفانيتسكي الفتاة برضاها وبالاتفاق مع بلدية ميشانسكايا. وشكر دوستوفسكي الموظف وأخرج محفظته، غير أن الموظف عارضه قائلاً:

- كنت أخذت نصف روبل من إنسان غيرك، أما منك يا فيودور ميخائيلوفيتش، صدقتي لا يسمح لي ضميري بذلك، لكن سأصافحك بحرارة.

وفي المر شاهد دوستوفسكي شرطياً. قد أسند رجلاً مخموراً على الحائط الوسخ وراح يلطمه بشدة على وجهه، أما المخمور فكان يحاول إزاحة رأسه ويصرخ بأعلى صوته:

- لا تضربني على وجهي يا ابن الكلبة، لا تضربني.

وصرخ الشرطي وهو يكيه ضرباً:

- وأنت يا سكير، لماذا تجر زوجتك على طول الرصيف من

ضفائرها؟



كان إيفانيتسكي يقيم في غرفة استأجرها في شقة لأرملة عجوز، زوجة ضابط سابق واسمها أغرافينا دميتريفنا. وكانت الشقة صغيرة تتألف من غرفتين فقط، لكنها نظيفة. وقد فرشت صاحبة البيت أرض الشقة بحصير فلاحى مزركش مع ديوان، وحقيقة الأمر مغطى بمشمع عتيق رمادي اللون. وفي غرفته توجد طاولة كتابة وسرير، وكانت الستائر - المعلقة على النوافذ مشغولة بزركشة عجيبة، فعليها تصيح ديوك شموخة، وكانت أغرافينا دميتريفنا تدر المال من وراء عملها في تطريز الدانتيل. ومعظم زبائنهن من الموظفين المتوسطين، وكانت ترتاح

نفسياً للموظف المتواضع الهادئ إيفانيتسكي، ولليتيمة الطيبة الخدومة ماشا.

كان إيفانيتسكي يدفع آجار الغرفة بما يعادل آجار الشقة بأكملها وإضافة لذلك كان يتناول طعامه مع الطفلة عند صاحبة البيت مقابل خمسة عشر روبلاً إضافياً في الشهر. وهناك قاطن آخر هو القط بوزيريك الأشقر، ينام على حصيرة خاصة به، قرب الموقد في المطبخ.

وكانت ماشا تدعو إيفانيتسكي بكلمة بابا، وهو يعاملها بطيبة وحنان الأب حقاً، وكانت تدرس الآن في الصف الرابع في البناسيون الخاص للبنات. كانت تدرس جيداً وإيفانيتسكي يساعدها في تحضير دروسها.

لقد تبنها إيفانيتسكي نتيجة ظروف جرت أمامه. فعندما توفيت والدة ماشا، جاءت مريبتان شريرتان من المأوى، لم يسمحا لها بأخذ «بوزيريك» معها. خطفتا القط من يديها، وبدون قلب رمته على الأرض، حتى أنه صاح شاكياً، فما كان من الفتاة ماشا إلا أن أجهشت باكياً، وفي تلك اللحظة كان إيفانيتسكي يصعد الدرجات إلى بيته، وبعد أن عرف ما حصل، غضب أشد الغضب.

- أنتما بدون قلب، وتدعيان أنكما مريبات، وأكد لماشا تحت تأثير الغضب والانفعال قائلاً: - سأتيناك ونأخذ القط معنا. وركضت ماشا إليه، وتعلقت به مستنجة، وقبلت يده. كانت تعرف إيفانيتسكي الذي يعيش في ذلك البيت.

وبما أن سلوكه الحسن كان معروفاً في الحي فاستطاع أن يحصل على موافقة بلدية ميشانسكايا. وبعد كافة الإجراءات الحكومية، أصبحت الفتاة تعيش عنده.

واشترى إيفانيتسكي لماشا مريولاً أبيض، وآخر أسود ومعطفاً مقبولاً ولباس المدرسة، أما الملابس الداخلية فقد اشترتها صاحبة البيت وعاشوا جميعاً بمودة وصداقة.

وكانت الطفلة تنام على الصندوق في غرفة صاحبة البيت، وتدرس في غرفة إيفانيتسكي.

وكان إيفانيتسكي خطاطاً ممتازاً، يكتب خطأ واضحاً أنيقاً، ولهذا كانوا يرسلون إليه الأوراق المهمة المرسلة إلى الوزارات والإدارات ليكتبها بخط يده، لقاء أجر خاص. ومثل هذا الدخل الإضافي لم يكن بدون أهمية للموظفين.

لقد سر فيودور ميخائيلوفيتش جداً بكل هذا، حتى أنه ضم إلى صدره إيفانيتسكي، وقال:

- أنا معجب بك أيها الأب، أنت إنسان عظيم بشكل لا يقدر.

- ماذا تقول يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ فالفضل يعود إليك أنت. لقد تغيرت منذ تلك الأمسية في المطعم - من الصعب أن أقص عليك كيف جرى ذلك، ربما جرى تدريجياً. لقد فهمت آنذاك أن على المرء أن يفعل الخير للآخرين. لقد فضلت تلك الفتاة التاجر الغني، ولا يجوز أن أدمن على الشراب بسبب ذلك، فقترت على نفسي - قطعة من الخبز وقطعة من القماش، وصرت أدخن أقل وألف السجائر بنفسي.

- رائع، رائع، هز دوستوفيسكي رأسه موافقاً. وأنا أفعل ذلك أيضاً.

وهنا حدث ما حدث مع ماشا فقدمت لها المساعدة. قلت لنفسي

لأفعل فعلاً خيراً..

لا تفكر أنني أمتدح نفسي - لا، سامحني يا ربي. لدى كل إنسان

شيء من الخير حتى لو كان في تلك الحالة التي كنت فيها ، والآن هذا مفهوم واضح بالنسبة لي. عندئذٍ - فهمت أنه من الضروري أن أؤمن بالأفضل.

- صحيح قال دوستويفسكي، يجب أن تؤمن بكل قلبك وروحك.

- لقد قلت لنفسني: ألن تصبح خادمة ، أو مربية أو شيئاً أسوأ من

ذلك...؟ إذ لم تصبح سونيا مارميلادوفا بإرادتها صاحبة بطاقة صفراء. لا ،

ليس بإرادتها... فقررت أن أتبنى ماشا ، أن أربيها ، وفكرت سأفعل خيراً

عندما أضع ولو واحدة ، واحدة فقط على الدرب السليم - وتابع

إيفانيتسكي اعترافه.

- وبعد ذلك أحببتها كطفلة لي. فأنا لا أستطيع الانتظار، فإذا

تأخرت في المدرسة أو في الملعب فاركض إلى الشارع وانتظرها. وهكذا

أصبحت الحياة أسهل بالنسبة لي، نعم أسهل.

وابتسم إيفانيتسكي ونظر إلى القط الذي قفز إلى ركبتيه.

عاد دوستويفسكي إلى بيته وهو يفكر: «آه كم من المفاجآت،

- وتوقف في منتصف الطريق، - كيف نسيت أن أشتري شيئاً طيباً لها،

ودخل إلى أحد المحلات وانتقى علبة سكاكر جميلة مربوطة بشريط

سماوي، واشتري رطلاً من السجق للقط «بوزيريك» ومن الدكان الثاني

أبتاع تبغاً ثميناً ولفائف.

كان إيفانيتسكي قد ذهب إلى البيت، فأعطى دوستويفسكي

الهدايا للسيدة صاحبة البيت. وطوال المساء ظل مزاج دوستويفسكي

مسروراً، حتى أنه كان يردد لحناً بدون كلمات.



# لدى الأمير المعظم

كان قسطنطين<sup>1</sup> يخطو في مكتبه بعصية جيئة وذهاباً. لقد اجتمع المدعوون في غرفة الضيافة الصغيرة. وكان من بينهم مفتش الدولة فيليبوف وبويدونوستسيف والأميرة بيلوسيلسكايا، بيلوزيرسكايا والسناطور فاسيلتشيكوف والكونتيسة شيريميتيفا إضافة لعدد من السادة الضباط.

ولم تخرج والدة قسطنطين من حجرتها لأنها كانت تعاني من مرض الشقيقة، فاهتم بالضيوف الشاب شيريميتف. وكان صوته الغض الرنان مسموعاً إلى مكتب الأمير.

أما الأمير الطويل القامة والنحيف، فكان يهز شاربيه وهو مرتد بزته العسكرية. مستغرباً تأخر دوستوفسكي عن الموعد؛ مع أنه معروف بدقة مواعيده، وأخيراً سمع الجرس في الأسفل، وأخبره الخادم قائلاً:

- السيد دوستوفسكي.

خرج قسطنطين إلى الصالون في الطابق الأسفل، حيث كان الخادم يساعد دوستوفسكي على خلع معطفه.

- فيودور ميخائيلوفيتش - قال الأمير وشد بيده مصافحاً الكاتب، كم أنا سعيد. لقد انتظرناك طويلاً. حتى ظننت أنك لن تشرفنا بزيارتك، أو أنك مرضت أو كنت مشغولاً.

تنفس دوستوفسكي قليلاً، وجلس على الأريكة وقال:

---

<sup>1</sup> قسطنطين، هو ابن أخي القيصر الكسندر الثاني، كان كاتباً وشاعراً وألف مناساة «القيصر اليهودي»، وعدداً من الأشعار والأغاني. مات فقيراً في إحدى المستشفيات العسكرية. م.

- اعذرني يا سمو الأمير، اضطررت للجلوس على أحد المقاعد في حديقة ليتني ساد. لقد أهلكني السعال.

- أنت تدخن كثيراً يا فيودور ميخائيلوفيتش.  
وابتسم دوستوفسكي وقال:

- لقد قال بطرس الأول، أن التبغ يطرد الرطوبة. ومرة أخرى أرجو قبول اعتذاري.

- بماذا تتكلم علينا اليوم؟

لقد جلبت «الجريمة والعقاب» فأنا أحب الحوار الذي جرى بين راديون راسكولنيكوف مع الموظف مارميلادوف في الحانة، هل تتذكره؟  
- كيف لا - صاح الأمير بسعادة - هذا هو فصلي المحبب. مأساة عارية حتى العظام، إضافة للعظمة، فأنت هناك فنان - عالم نفس عظيم.  
- أوه، ماذا تقول! ارتبك فيودور ميخائيلوفيتش حتى أنه لاح بيده. ثم صعدا سوية إلى الطابق الثاني ودخلا غرفة الضيوف الصغيرة.

استقبله الحاضرون بكثير من الاحترام، وهذا ما سر دوستوفسكي وفكر في نفسه: «بيدون كرماء... كيف ذلك، فهم أرسقراطيون، أمراء معظمون وأميرات معظمات، أما أنا فلست سوى ملازم مسرح». لكن ذلك مجرد ارتياح، إذ كان الحاضرون في حقيقة الأمر يقدرونه عالياً، حتى كادوا يعتبرونه نبياً. وأشرق وجه بوييدونوستسيف الطويل المصفر بابتسامة رقيقة. أما الأميرة بيلوسيلسكايا - بيلوزيرسكايا فقد صافحته بيديها الاثنتين بكثير من الحماس.

وعلى الطاولة المستديرة كانت فناجين الشاي المنتظمة بشكل

أنيق، ونبذ خفيف، وفواكه وبسكويت.

- أين تفضل الجلوس؟ - سأل الأمير.

- إذا سمحت يا سمو الأمير فسأجلس هنا قرب الشمعدان.

وبعد أن شرب الجميع قليلاً من الشاي - اتجهت أنظارهم إلى

دوستوفسكي الذي فتح كتابه وبدأ.



ف. دوستوفسكي

# تلهيز دوستويفسكي

سار ألكسندر فاسيليفتش كروغوف الأديب الناشئ، القادم من فولوغدا في شارع ليفوفكا، الذي يسكنه الموظفون الصغار والصناع والحرفيون.

كان كروغوف، عادي الملبس، بل فقير الملبس معتل الوجه، ويضع نظارة على عينيه. وبدا الشارع في ذلك الجو الماطر والرياح القوية، بقناطره القديمة الوسخة وبيوته التي فقدت ألوانها، أشبه برؤية في الحلم.

كان كروغوف يسير متمهلاً وينظر يميناً ويساراً، باحثاً عن البيت الذي يقصده ويحتاج إليه للغاية. أنه بيت دوستويفسكي.

إن مجرد ذكر اسم دوستويفسكي يصيب رأس كروغوف بالدوار، فكيف سيدخل إليه؟ إلى مؤلف «ذكريات من بيت الموتى» و«الجريمة والعقاب» و«الأبله»، كيف سيدخل على مكتبه ويسأله عن روايته؟ تلك الرواية التي خرزها وغلفها بأناقة قبل إرسالها بالبريد إلى دوستويفسكي.

في الرواية شاب عمره عشرون عاماً لم ينه الثانوية، ويعمل منذ شهرين في دائرة حكومية، كان يحل مشاكل السعادة العائلية والإخلاص الزوجي ومسائل الدين والأخلاق. بكلمة ثانية، رواية.

ماذا لديه؟ فالكسندر كروغوف ابن مفتش المعاهد الشعبية ماذا لديه هو بالذات؟ ماذا لديه في روحه؟ لقد كتب ثلاث أو أربع مقالات وبعض الأشعار التي نالت إعجاب الكتاب والصحفيين الكبار، الذين كانوا يعيشون في منفى فولوغودسكايا، ويتعاطفون معه أمثال بيوتر

لافروفيتش لافروف، نيكولاى فاسيليفتش شيلفونوف. عن أي شيء كتب؟ عن الحياة في مقاطعة فولوغدا، عن النساء الفقيرات العاملات في التطريز، والمسلوبات من قبل العابرين الوحشين والتجار.

لقد جلب معه إلى بطرسبورغ مقالة كتبت منذ عام عن نضال لومونوسوف العظيم والشاق واللامحتمل مع الأكاديميين الأغبياء.

لكن الرواية. يا إلهي! كيف تجرأ وأرسلها؟ وإلى من؟

والحقيقة أن أصدقاءه حذروه قبل أن يرسلها، لكن تحذيرهم كان آتياً من وجهة نظر أخرى: «كيف لا تخجل أن تتعامل مع دوستويفسكي مؤلف «الشياطين» والذي يعمل لدى الأمير ميشيرسكي محرراً «للمواطن» ذات النزعة الملكية؟ ألم يبيع نفسه لقاء صحن من حساء العدس؟ والذي يجمع بين السجين السياسي والأمير. ولماذا يحتاج كروغولوف إلى نصيحة محرر «المواطن» بعد أن شجعه لافروف بنفسه؟» .. هذا ما قاله له.

غير أن كروغولوف اعتقد أن دوستويفسكي يقوم بتحرير «المواطن» لحاجته المادية «فقد كان في ضائقة مالية»، وكان الناس يقرؤون المجلة لأجل ما يكتبه دوستويفسكي فقط في يوميات كاتب. فقط، وكم كانت مقالاته مميزة عن بقية صفحات المجلة الساذجة. كم في مقالاته من الموهبة، وكيف كانت تنطرق إلى المواضيع الأكثر أهمية. فمن الممكن أحياناً أن لا يتفق المرء مع رأي دوستويفسكي، غير أنه بكتابته يجبرك على التفكير ولا يدعك لامبالياً.

ومر بالقرب منه ثلاثة صناع مخمورين، وقد ملؤوا الرصيف بأجسامهم الضخمة، وكانوا يتحدثون فيما بينهم.

- لا بد أن يكون طالباً ذلك الشاب ذو النظارات، - قال أحدهم  
محدداً شخصية كروغلوب بعد أن أعاره انتباهه.

- كل العلائم تدل على أنه مصاب بالسل - قال آخر.

- صحيح فهو يشبه المسلول. لقد لاحظوا ذلك بدقة، ووافق  
كروغلوب على رأيهم في ذهنه. لكن بدون أهمية - الأهم ما سيقوله  
دوستوفسكي»...

هذا هو زقاق غوسيف القذر، وهنا في تلك الزاوية يقع بيت  
دوستوفسكي أنه يشبه تلك البيوت التي يجد فيها الكاتب أبطاله، أنه  
مثلهم تماماً سوداوي ومنته.

اعتلى الطالب الدرجات على الطابق الثالث، ودق ضاغط الجرس  
فخرجت دقائه هادئة، لا تشبه دقات جرس راسكولنيكوف العاصفة  
المتهورة.

فتحت الباب فتاة.

- هل فيودور ميخائيلوفيتش في البيت؟

- نعم في البيت - وابتعدت الفتاة جانباً لتفسح له الطريق - تفضل.

تبين لكروغلوب أن حالة الشقة متواضعة، معتدلة وغرفها ليست  
كبيرة والأثاث بسيط. وكان يسمع من مكتب دوستوفسكي حواراً  
بينه وبين رجل آخر.

- سامحني يا فيودور ألكسندروفيتش. أتمنى أن لا يحصل أي

تأخير. يجب أن يخرج العدد في الوقت المحدد، في مواعده.

- لا تقلق يا فيودور ميخائيلوفيتش، كل شيء سيتم في دقة.

وظهر في الباب سيد في لباس أنيق يحمل حقيبة إدارية بيده.

- هل أنت قادم لمقابلة المحرر؟ ما اسمك؟ سأبلغ فيودور ميخائيلوفيتش حالاً.

وسمّع صوت دوستوفسكي.

- دعه يدخل.

كان المكتب بسيطاً للغاية، حتى يكاد لا يصدق أن دوستوفسكي يمضي معظم أوقاته هنا: ديوان مغطى بقماش سميك، أحمر اللون... ينام عليه دوستوفسكي وقت الحاجة. شمعدان ومحبرة قديمة، وعلبة تبغ معدنية مع لفائف وبعض الكتب والصحف على الطاولة. وقرب الطاولة أريكة خشبية متواضعة، وبالقرب منها كان كرسي لجلوس المراجعين، والزوار. وعلى الجانب طاولة صغيرة، عليها مخطوطات وأطباق أوراق. والخزانة مليئة بالكتب. وعلقت على الجدران صور أقرباء دوستوفسكي وصورته الشخصية.

استقبل دوستوفسكي كروغوف في الباب، وتطلع إليه من تحت حاجبيه المشدودين بعينيه الرماديتين، وراح يراقب الزائر ويتفحصه بدقة.

- نعم، نعم. ألكسندر فاسيليفتش كروغوف من فولوغدا. لقد قرأت مخطوطتك - وبحث بين الأطباق؛ وأخرج دفترًا سميكًا، هذه هي.

- نعم يا فيودور ميخائيلوفيتش.

ولامس دوستوفسكي بأصابعه النحيلة لحيته الروسية.

- اجلس، تفضل. نعم، نعم لقد قرأت روايتك - وضرب الطاولة بالمخطوطة - قرأتها. ثم راح يتحدث بحزن وبسرعة: «أنت ما زلت شاباً»، لم تر من الحياة شيئاً بعد. كيف تتجرأ وتعالج مثل هذا الموضوع المعقد

الصعب؟ وخطا دوستوفسكي في المكتب بعصية - أنت تخطو خطوات عريضة، لكنك لا تملك القدرة والقوة الكافية.

جلس كروغولوف على طرف الكرسي وقد تراءى له أن

دوستوفسكي سيطرده قريباً مكللاً بعاره. وتابع دوستوفسكي:

- أنت تحتاج لعمق في المعرفة. من أين لك هذه المعرفة؟ أية أوضاع

وحالات تناقش وتعالج؟ الأكثر درامية؟ نفسية الأم التي فقدت ابنتها...

معاناة الزوج الذي خانته زوجته، وفي أية ظروف غريبة؟... ظروف غريبة،

ظروف غريبة وغير معقولة. والدين، ماذا تفهم فيه وأنت ما تزال في سن

العشرين. ماذا؟ لماذا تتناول حياة الأرستقراطيين؟ هل تعرف حياتهم؟ هل

شاهدت أرستقراطيين حقيقيين؟

- لا - همس كروغولوف.

- لكنك تكتب عنهم. الأفضل أن تتحدث عن نفسك.

وحاول كروغولوف أن يتحدث، غير أنه تلثم بكلمات ليست واضحة.

- هل مدينتك جيدة؟ - سأل دوستوفسكي فجأة.

- حسب الشخص يا فيودور ميخائيلوفيتش. بالنسبة لي يعجبني

موطني الأصلي فيليكسي أوستيوغ وفولوغدا لكن الحياة - الحياة فيها

جميلة. أما المدينة نفسها، ففيها المعابد التاريخية والبيوت الخشبية،

والخضار كثيرة عندنا، والهواء ليس كهواء بطرسبورغ.

- نعم هذا شبيه بستاريا روساً... تقول أنك تعمل موظفاً معيداً. هذا

لا يكفي.

طبعاً لا يجوز أن تتحدث عن نفسك فقط، لكنك تحتاج إلى

التجربة الأدبية والقدرة على التصور والتبؤ، يجب أن تمتلك قوة خاصة،

قوة كتابية، والتي يجب أن تنميها باستمرار، بالقراءة المستمرة بالأفكار والعمل. نعم. - اقترب دوستوفسكي من كروغلوب وتحولت نبرة صوته فجأة وأصبحت طيبة، ثاقبة مشجعة. لا تيأس أيها السيد، من الغباء أن تزعج، فأنا أقول ذلك من أجلك أنت، لديك الموهبة وستصبح فناناً، لكنك بحاجة لصقل هذه الموهبة، عليك أن تقرأ كثيراً، أن تتعلم كثيراً، أن تراقب الحياة، تلاحظها، أن لا تخاف من الأوساخ والرداءة، الكاتب ليس فتاة مدللة. يجب أن لا تؤلف، بل عليك أن تصور الحياة، هل تسمعي؟ (وقال دوستوفسكي الكثير من الأشياء الضرورية والطيبة للشباب كروغلوب) وعندما ودَّعه، طلب منه بكثير من الاهتمام:

- لا تستأ.

- لا، أجب الكسندر بكل صدق - أنا شاكر جداً.  
- دع الرواية جانباً الآن. ستكبر وتقرؤها وستضحك من نفسك. وبعد أن أموت ستتذكر وتقول كان دوستوفسكي على حق. الأهم أن تكون طموحاً، وأن تكتب.

اكتب وسيخرج منك شيء ما. صدقني لا ترم القلم.  
و شد دوستوفسكي بحرارة على يد كروغلوب مودَّعاً ثم صاح عندما أصبح كروغلوب على قنطرة الدرج:  
- من الضروري أن تكتب.

خرج كروغلوب من المدخل، وقد ركب له جناحان، سار دون أن يلاحظ الشوارع، سار مخموراً بأفكاره، وفي أذنيه تتردد كلمات دوستوفسكي «اكتب، اكتب، لديك الموهبة، أنت تستطيع أن تكتب».

وخيم الظلام على المدينة، وأشعلت المصابيح، والناس تتحرك كأشباح في ضباب بطرسبورغ الرطب. وتناهي لكروغولوف من بوابة إحدى الحانات صوت جنائزي رنيم، وموسيقا أكروديون، ثم صوت مخمور يصيح بقوة هائلة:

- لقد مت، إلى الأبد.

«أما أنا فلم أمت، فكر كروغولوف بسعادة، - لم أمت».

لم يلاحظ كروغولوف كيف وصل إلى شارع نيفسكي بروسبكت المشع بأنواره، وراحت عيناه تلتقي بالنساء المتزينات بقبعات مزخرفة بأقمشة شفافة، وبضباط يخشخشون بسيوفهم ومهاميزهم، بدلاً من الصناعات في شارع ليفوفكا. ووقفت قرب بوابات المطاعم عربات الأغنياء والحوذيين، الذين تربعوا عليها مثل رعاة الماعز. أما الكسندر كروغولوف، فكان يسير في الشارع، وهو لا يسمع في أذنيه سوى كلمات دوستويفسكي.



ورماه قدره إلى طرق مختلفة، فقد عمل مكتبياً في مكتبة بطرسبورغ الكبيرة. وكتب للصحف والمجلات. وتقل إلى أمكنة عديدة في وطنه الكبير. وقد أعجبه أكثر من غيرها أفضية منطقة زيريانسكيا الواسعة الأطراف، القليلة السكان التابعة لمحافظة فولوغدا.

وكان كروغولوف كثيراً ما يردد الحكمة الشعبية لشعب الكومي «الإنسان في وحدته نصف إنسان». وأينما حل كروغولوف، كان يتذكر وجه دوستويفسكي. وكان تأثير دوستويفسكي العميق على وعيه واضحاً في كل ما كتبه.

وهنا يتحدث عن حياة فلاح، «رجل الغابة» الكومي.

ويتميز كيركا (بيت) بالضخامة، حتى أنهم لم يكونوا يبنون العنابر الصغيرة، لكثرة أشجار الصنوبر في الغابات الكثيفة المحيطة بهم.

وهنا استضافوا كروغولوف بكرم وأطمعوه أرغفة الخبز الطيبة المصنوعة من دقيق الشعير، والدهونة بالزبدة، وفتائر سمك، محشوة بسمكة كاملة، نظفت من داخلها وبقيت حراشفها. وقدموا له اللفت المسلوق، وعليه الزبدة واللبن. ويظن المرء أن كل شيء هنا في حالة جيدة، البيت المدعم القوي، فتائر الخضار، واللبن...

وهنا يمتدح ألكسندر فاسيليفتش الخبز، ويجيبه الفلاح «حمداً لله، لم نحتج لأكل العصيدة حتى الآن». وهنا تبدأ الكلمات المرة.

«آه من تلك العصيدة. عصيدة، الخبز من التتوب ومن قشور الحور مع قليل من الدقيق، عصيدة - خبز، عصيدة - عصيدة.

مرة تناولت قليلاً من تلك العصيدة وظننت أن أمعائي لا بد أن تلتهب - وينهي حديثه بتأثر بالغ: لكنهم يأكلونها. يأكلونها ويموتون». نعم هذا ما هو مرعب «يموتون».

وتصطبغ مناظر منطقة زيريانسكي بالألوان الحزينة. مع أن الطبيعة غنية والحيوانات كثيرة، ومع ذلك يتناولون العصيدة. فالتجار يدفعون الفلوس للحيوانات المصادة، إضافة لصعوبة الوصول إلى مدينة كومي - زيرياني، فالمنطقة مترامية الأطراف.

«نسافر لليوم الثالث والخريف الممطر العبوس يحيط بنا من كل الجهات، وللمرة الثالثة هبطت الفيوم الداكنة السوداء على الأرض،

واختلطت الأشياء ببعضها بعضاً، تحولت إلى شيء يصعب تمييزه، ورذاذ المطر - الذي يدعى كامد بلغتهم «جيجير» يهطل ويلذع الجسد ببرودته، ويبعث الكآبة في النفس».

هنا تبدو بشكل واضح لهجة المؤلف القريبة جداً من لهجة دوستويفسكي.

وفي صفحات ديوان شعري آخر لكروغولوف، أضيفت إلى صفحاته قصة حب لا ينفصم عمراه، بين شاب وفتاة في ظروف شبيهة جداً بظروف وحالات «المهانون المنزلون».



عمل كروغولوف في آخر أيام حياته ناشراً ومحرراً في مجلة مصورة صغيرة تصدر في موسكو، تدعى «المشعل» ذات ميول سلافية. وخلال حياته القصيرة نسبياً (توفي في موسكو عام 1915 عن عمر لا يتجاوز 62 عاماً). كتب العديد من المؤلفات للصغار والكبار. وقص كروغولوف في مذكراته التي نشرها في «البشير التاريخي» عن لقاءاته وتعارفه مع كتاب وصحفيين، كان من بينهم ن. ف. شيلفونوف، وب. ل. لافروف، ون. ا. نيكراسوف، و ا. ب. تشيخوف وغيرهم. وكثيراً ما كان يلتقى مع ابنه بلده ف. آ. غيلياروفسكي. والتقى كروغولوف مع دوستويفسكي مرتين فيما بعد:

الأولى، عندما كان يسير مع طالب صديق له في شارع نيفسكي بوسبكت، ومرّ دوستويفسكي في ذلك الوقت راكباً على عربة، فخلع الطالب سدارته عن رأسه وانحنى محيياً دوستويفسكي فسأله كروغولوف:

- هل تعرف السيد دوستوفسكي؟

- لا - أجب الطالب - شخصياً لم أتعرف إليه، لكنني عندما أتواجد في موسكو فأنا أقف حاسر الرأس أمام تمثال بوشكين. ودوستوفسكي بالنسبة لي كاتب عظيم مجدّ روسيا. وأنا أنحني لهذا المجد. لقد هزت كلمات الطالب مشاعر كروغولوف.

- أي إنسان عظيم أنت؟ - امتدح كروغولوف الطالب.

وكان كروغولوف سعيداً عندما استلم رسالة من طالبة يعرفها من فولوغدا. كانت تتبادل معه الآراء والأفكار حول الأدب، وقد كتبت له مرة تقول: «إنني أحترم وأقدر دوستوفسكي أكثر من بقية الكُتاب، فقد أصبح في الأعوام الأخيرة ليس روائياً بالنسبة لي، بل ومعلماً أيضاً».

وكان لقاءه الأخير مع دوستوفسكي، قبل موت الأخير بقليل ففي عام 1880 عمل كروغولوف في صحيفة «روسيا» التي يصدرها الرأسمالي الأورالي الكبير ديميدوف. وكان كروغولوف مسؤولاً عن التعليقات الصحفية ويوقعها باسم «روسي»، والتقى دوستوفسكي في إدارة التحرير.

كان دوستوفسكي قد خرج لتوه من مكتب المحرر. فبادره كروغولوف الحديث:

- ألم تعرفني يا فيودور ميخائيلوفيتش؟

توقف دوستوفسكي:

- لقد رأيت، رأيتك، في مكان ما - ونظر إليه متمعناً.

- لقد أرسلت لك منذ عدة أعوام مضت مخطوطة رواية من فولوغدا وكنيتي كروغولوف.

وأوما دوستوفسكي برأسه موافقاً.

- إذاً عليك بكتابة القصص القصيرة. بعد ذلك تنتقل لكتابة الرواية، وذلك إذا احتجت، إذا احتجت... وماذا تفعل الآن؟  
- اكتب تعليقات صحفية.

عندئذٍ تذكر دوستوفسكي محدثه.

- آه يا عزيزي - إنني سعيد جداً بلقائك. لقد قرأت قصتك الأخيرة «بدون دبلوم» أنها قصة جيدة. وأين روايتك تلك؟  
- مزقتها.

ووضع دوستوفسكي يده على كتف كروغولوف وقال:

- عليك أن لا تتولع في ذلك كثيراً، وأن لا تحمل كثيراً من الأعباء، وأن لا تدوس على الآخرين، واحترم من يعمل بشرف وإخلاص. كان منظر دوستوفسكي تعباً، وراح يسعل طويلاً دون أن يتوقف. لقد قاسى كروغولوف كثيراً بعد موت دوستوفسكي. مرض، ولم يعد يستطيع الكتابة بسهولة كما كان يفعل، ووضع كتاباً لذكرى الكاتب دوستوفسكي بعنوان «دوستوفسكي للأطفال في سن المدرسة»<sup>1</sup>.

وكان يتردد على ستاريا روساً، وكتب عنها مقالة وصف فيها منزل دوستوفسكي.



---

<sup>1</sup> لقد ذكر اسم أ. ف. كروغولوف في موسوعة بروكهاوس و إيفرون عندما كان على قيد الحياة وفي طبعة «متحف الكتاب والفنانين الروس عام 1901»، يوجد إضافة لصور تشيخوف و غوركي و غارشين، صورة كروغولوف. ونشرت في باريس في طبعات خاصة كتبه «من الطفولة الذهبية» و«إيفان إيفانوفيتش وشركاه».

# الإخوة كارامازوف

كان المساء وراء نافذة مكتب فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي، المضاء بالشموع المشتعلة.

جلس دوستويفسكي خلف طاولته يفكر.

يفكر بأسرته، بزوجته، بعمله. كم عليه أن يعمل؟ وانصحة لا تسمح له بذلك، وتشرف سنوات العمر على عام الستين، إنه لمن المستحيل إيقاف الزمن.

من حسن الحظ أن أنا معه، بالقرب منه. كم كانت الحياة صعبة من دونها! أنها امرأة رائعة. لقد تحسنت الحالة المادية. كم كانت صعبة، إلى أية درجة من الصعوبة، والآن حمداً لله عايشون.

تذكر كم عانت وهي شابة (كانت في العشرين من عمرها) من رهن الحاجيات، و وفاة الطفلة الأولى، ومن التهديد الذي تلقاه زوجها من التاجر الألماني... تحملت كل ذلك، ومع ذلك لم تفقد شيئاً من غنائها الروحي. كانت تعجب بمتاحف فلورنسا، وقد ملأت عدداً من الكتب برموز الاختزال، مسجلة انطباعاتها عن الآثار واللوحات التي شاهدتها.

كانت معه دائماً، لا تفارقه أبداً، إنها رفيقة الدرب المخلصة. وهما هو جالس تعب في مكتبه. الظلام وراء النافذة وعلى الطاولة الأوراق المبعثرة... عليه أن يكتب، لكنه يفكر بزوجه المتفانية. كانت محافظة جداً، لكن إذا منحته الحرية فسينطلق هو والأولاد في هذا العالم.

لقد أخذت أنا على عاتقها كل هموم البيت، وهذا يعني أنها فرغته من أجل عمله الأساسي. لقد أصبحت أول امرأة روسية، تنشر مؤلفاته التي نشرت في المجلات. ومن هذا العمل كانت تحصل على المال.

لنأخذ هذه الحادثة الصغيرة اللطيفة. لقد لمحت أنا غريغوريفنا للكونتيسة أرملة ألكسي قسطنطينوفيتش تولستوي، عن رغبة زوجها في امتلاك صورة كبيرة لـ «مادونا السيستين»، وها هي اللوحة الآن معلقة على الجدار فوق الديوان في إطار جميل، وعليها زجاج شفاف. ينهض دوستوفسكي، يدفع بالكنبة جانباً، يخطو داخل المكتب..

نعم إنه يحب زوجته العزيزة أنا. لقد كتب لها مرة من إمس.. «إنني أقبلك في خيالي كل دقيقة». وخلف النافذة زقاق كوزنيتشني المظلم. ودوستوفسكي يخطو داخل مكتبه، يدخن.

يتذكر المصيبة التي حصلت منذ مدة ليست طويلة. موت ابنه الحبيب ألكسي من نوبة صرع شديدة. هذا الموت الذي عصر قلبه، أوه كيف عصره! كان طفلاً ذكياً. والآن، لا وجود لذلك الطفل الصغير الدافئ، لا وجود لـ ألكسي فيودورفيتش دوستوفسكي. لقد غادر الحياة... وكانت أنا تهدئ من روعه.

- لا داعي أن تقتل نفسك يا فيديا، فلدينا طفلان، ولديك عمل يحتاجه الناس. يجب أن نعيش يا فيديا.

نعم عليه أن يعيش. صعب عليه، لكن يتوجب ذلك، عندئذ قال لزوجته:

- أنيا- لقد مات ألكسي فيودورفيتش دوستوفسكي، لكن ألكسي كارامازوف، الذي أرى فيه المستقبل، جيل ابنا، سيبقى حياً.... كان يحلم بمتابعة الرواية، بعد أن انتهى من كتابة الرواية الأولى. لقد كتب في مقدمة «الإخوة كارامازوف». «الرواية الثانية - هي الأهم - ففيها نشاط وعمل بطولي في زمننا الحاضر، في زمننا الآتي بالضبط».

وكانت تتكرر زيارة الطالب كارامازوف، الذي أطلق النار على القيصر في أحلامه الليلية. وكان دوستوفسكي يتساءل: أليس من المحتمل أن يكون قدر ذلك الطالب الذي أعدم هو قدر ألكسي؟ لأكتب بسرعة الرواية الأولى.

لقد بذل دوستوفسكي في كتابه «الإخوة كارامازوف» طاقته القصوى، ففي عام 1878 لم يكن قد وضع المخطط فقط (كان المخطط أصعب مرحلة بالنسبة له)، بل كتب حوالي مئتين من الصفحات بخط يده. والتي طبعت في كانون الثاني في «البشير الروسي» لعام 1879. ولقد انتهى دوستوفسكي من كتابة الإخوة كارامازوف قبل ثلاثة شهور فقط من وفاته، في بداية شهر تشرين ثاني عام 1880. «وهكذا انتهت من كتابة الرواية: عملت فيها ثلاثة أعوام، طبعتها مدة عامين. إنها لحظة مهمة من لحظات حياتي».

كان يكتب ويرسل الفصل تلو الآخر إلى موسكو، إلى المحرر لوبيموف.

وكان دوستوفسكي يعطي أهمية خاصة لانطباعات أنا عن الرراية أثناء إملائه «الإخوة كارامازوف» إذ كانت تحس دائماً بما سيعجب القراء.

لكنها خافت من شيء واحد في الرواية، وذلك ناتج عن كونها امرأة مؤمنة لا يتبادر الشك لحظة إلى ذهنها في صحة تعاليم الكنيسة. خافت من القوة المدهشة في نفي الركائز الدينية، التي لم يصفها فيودور ميخائيلوفيتش بكلام أبطاله. وتراعى لها أن دوستوفسكي المؤمن الشديدي الإيمان في المسيح وفي الحياة الأبدية، ينبعث من جديد في شخصية إيفان كارامازوف.

وتذكرت أنا ما قاله لها دوستوفسكي عندما كانا في الخارج،

وعندما فكر بكتابة رواية من خمس قصص «حياة مذب كبير».

- اتعرفين يا أنيا؟ أريد أن أطرق فكرة هائلة، فكرة ترهقني من

أيام شبابي - عن وجود الله - هل موجود هو أم لا؟ إن بطلي يبدو متعصباً دينياً أحياناً وملحداً في لحظات أخرى، مؤمناً في لحظة، ملحداً في أخرى.

كانت أنا ترتعش أثناء اختزالها لرواية «الإخوة كارامازوف»،

ترتعش من مناقشة إيفان للهرمونيا الإلهية.

أوه! بأية قوة كان يدوي صوت دوستوفسكي، عندما يقرأ عن

عصيان.. إيفان كارامازوف، الذي يحدث الكسي عن الطفل المذب.

كانت أنا تدرك أن دوستوفسكي يتطرق هنا إلى صلب المسائل

الدينية الأساسية، حول التسامح الرياني، عن الخطيئة الأولى، فحسب

المشاعر والتعاليم المسيحية كان على الأم أن تسامح الجنرال المذب.

وهنا يجيب المستمع الطيب، الحبيب الكسي كارامازوف على

سؤال إيفان. هل يجب إعدام القاتل؟ نعم يجب إعدامه..

ونظرت أنا على زوجها، كان وجهه يرتجف متشنجاً، لكن في

عينيه بريق احتفالي.

- فيديا - سألته أنا بهدوء وخوف، - لماذا يبدو إيفان جذاباً بهذا

الشكل، مع أن الكسي هو العنصر المنير؟ ومع ذلك فلدى إيفان قوة، أية

قوة...!

- لديه قوة داخلية وإيمان.. - صمت دوستوفسكي ثم قال يحزن

- هناك بعض السادة النقاد، الذين يؤكدون للقراء، بأن الشخصيات، في

روايتي تتحرك وتقوم بأفعال لا عقلانية، لكن لدي فكرة مسجلة للـ

عليهم: «إذا جرى كل شيء بعقلانية، فمعنى ذلك أنه لم يجر شيء». هذا هو بالضبط يا عزيزتي آنيا.

أحياناً كانت أنا تبكي وهي تختزل الرواية. لقد كانت أما فقدت طفلين من أطفالها، وها هو زوجها يقرأ فصولاً تتعلق بموت الولد الشبيه بالكسي.

عندئذٍ كان دوستوفسكي يتوقف عن إملائها، يقترب ويقبل رأسها. لقد تأسفت أنا غريغوريفنا، لأنها لم تستطع أن تسافر مع زوجها إلى موسكو إلى حفلة إزاحة الستار عن تمثال بوشكين في يوبيله.

ولقد كتب دوستوفسكي رسالة لزوجته في الثامن من حزيران عام 1880، وكان ما يزال تحت تأثير كلمته، التي ألقاها في جلسة جمعية هواة اللغة الروسية وآدابها، والتي شارك فيها إيوان سيرغيفيتش تورغينيف، وإيفان أكساكوف وغيرهم من الأدباء: «صباح هذا اليوم قرأت كلمتي عند «الهواة». كانت القاعة مليئة حتى الازدحام. أنت لا تستطيعين أن تتصور وتخيلي التأثير الذي أحدثته كلمتي، إن نجاحاتي في بطرسبورغ تبدو هشة، صفرأ - قياساً مع هذا النجاح».

وعرفت أنا من خلال الصحف أن زوجها لم يبالغ في وصفه. فكلمته «البوشكينية»، التي تحدث فيها عن وحدة الناس في أرجاء العالم، وعن ضرورة أن يفهم المثقفون الركائز الشعبية، الحقيقة الشعبية، وعن الخضوع (اخضع يا مبتكر)، قوبلت بحرارة، حتى أنها أصبحت حدثاً. ولقد كتب غليب أوسبينسكي تعليقاً صحفياً مؤيداً لها في الصحف.

وبعد ذلك، انصبت المعارضات واستعرت المناقشات، عندما نشرت كلمته في «الاستمارات المسكوفية» وفي «يوميات كاتب».

لقد غدا دوستوفسكي في أيام يوبيل بوشكين من أشهر الكتاب المعروفين، ولم يعد أقل شهرة من تورغنيف.  
لقد كللوه بإكليل الغار، وشكره عمدة مدينة موسكو تريتياكوف باسم المدينة.  
وفي نفس تلك الليلة حمل دوستوفسكي الأكليل إلى شارع فييرسكي، ووضعه عند أقدام تمثال بوشكين.



في 28 كانون ثاني (9 شباط) <sup>1</sup> 1881 توفى الكاتب الكبير فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي. لقد غادر الحياة ذلك الزاهد الكبير، الذي لم يكن يقدر شيئاً أكثر من كلمة «روسيا»، والذي كان يؤمن بأن «سيادة الفكر والنور ستعيش لدينا نحن، وربما بشكل أفضل من أي مكان آخر».

لقد عاشت أنا غريغوريفنا بقية حياتها الجديدة مخلصة لذكرى زوجها. لقد جمعت المواد عن حياته، وزارت الأماكن التي رافقته إليها، وأصدرت تاريخ حياته، وبعضاً من الرسائل المختارة، ومؤلفاته، وأخرجت جدولاً مفهرساً للمؤلفات واللوحات الفنية التي لها علاقة بحياة دوستوفسكي، وكتبت المذكرات، ونظمت غرفة ذكرى دوستوفسكي في المتحف التاريخي.

وافتححت مدرسة باسمه في ستاريا روساً، أما ابنتها الكاتبة لويوف (لويبا) - فيودوروفنا دوستوفسكايا فقد ذكرت في كتابها عن والدها

---

<sup>1</sup> 28 كانون الثاني حسب التقويم الروسي القديم يوافق (9 شباط) حسب التقويم المعاصر.

ما يلي: إنها أثناء قراءتها لرواية «الإخوة كارامازوف»، تعرفت بسهولة على طبوغرافية المدينة «وأن بيت المعجوز كارامازوف، هو منزلنا الصيفي مع بعض التغيرات الطفيفة، وغروشينكا الجميلة - الشابة القروية التي عرفها والدي في ستاريا روساً هي (غروشينكا مينشوفا - التي تزوجت سرّاً. وكانت على علاقة صداقة مع أنا غريفوريفنا، وتتبادل معها الرسائل). أما بيتها فما زال قائماً في ستاريا روساً. والتاجر بلوتتيكوف - كان المورد المحبوب من قبل والدي. أما أندريه وتيموفيه فهما الحوذيان الحبيبان اللذان كان يقلّنا كل عام إلى شاطئ إيميلينيا، حيث كان يحل البرد في الخريف».

لقد ضحّت أرملة الكاتب أنا غريفوريفنا بألف روبل من أجل إعادة بناء المدرسة بعدما احترقت. بقيت المدرسة حتى عام 1941 عام الحرب فهدمها الهتلريون. وتضرر منزل الكاتب أيضاً. ثم أعيد بناؤه من جديد، مع الحفاظ على شكله وطرازه القديم. وبنيت هناك مدرسة موسيقية للأطفال. وفي عام 1969 - أقيم متحف أثري صغير على أسس اجتماعية في «البيت تحت أشجار الدردار».

عام 1918 - توفيت أنا غريفوريفنا في يالطا، إذ لم تستطع العودة إلى موسكو لمشاهدة ولدها، لأن شبه جزيرة القرم كانت محتلة آنذاك من قبل الكايزر الألماني<sup>1</sup> والحرس الأبيض. وكانت أمنيتها أن توارى في التراب قرب زوجها، حتى أنها كانت قد اشترت لنفسها مكاناً لقبورها في دير الكسندروفسكي.

---

<sup>1</sup> الكايزر في الألمانية وفي اللغة اللاتينية - قيصر. هكذا كان يدعى إمبراطور «إمبراطورية روما المقدسة» من عام (962-1806) وكذلك إمبراطور إمبراطورية ألمانيا (1871-1918م).

# الفهرس

5	..... المقممة
10	..... كلمة المؤلف
11	..... حفلة زفاف
19	..... السعادة العائلية
24	..... في موسكو
29	..... في المهجر
41	..... العودة
49	..... معرض اللوحات الفنية
55	..... زيارة نيكرا سوف
61	..... المحرر والناشرة
65	..... عندما كانت الأسرة في المهجر
71	..... ستاريا روستا
77	..... الكاتب وأحد الوجهاء
85	..... ناستينكا
107	..... بيان عن الحرب
110	..... محضر الوجهاء
118	..... الطالبة الجامعية
132	..... درب نيكرا سوف الأخير
140	..... داروفوي
144	..... يوميات كاتب
147	..... يجب أن أعيش
150	..... فتاة على الرصيف
158	..... لدى الأمير المعظم
161	..... تلميذ دوستوفسكي
172	..... الأخوة كارامازوف
179	..... الفهرس

## من منشورات دار علاء الدين

- |                                     |                                    |
|-------------------------------------|------------------------------------|
| ● رفاق شقائق النعمان                | ● عودة الإنسان                     |
| ..... هنري ترويا                    | ..... ف. م. دستوفسكي               |
| ● النبيلة الروسية                   | ● ف. م. دستوفسكي                   |
| ..... هنري ترويا                    | ..... ليونيد غروسمان               |
| ● مجد المهزومين                     | ● دوستوفسكي حياته أعماله           |
| ..... هنري ترويا                    | ..... هنري ترويا                   |
| ● صوفيا أو نهاية المعارك            | ● صفحات مجهولة من حياة تولستوي     |
| ..... هنري ترويا                    | ..... ك. لومونوف                   |
| ● سيدات سيبيريا                     | ● القصائد الشرقية                  |
| ..... هنري ترويا                    | ..... الكمندر بوشكين               |
| ● أوشا                              | ● الروح الشريرة                    |
| ..... هنري ترويا                    | ..... ميخائيل ليرمنتوف             |
| ● ابنة الكاتب                       | ● مختارات من الشعر الروسي في       |
| ..... هنري ترويا                    | ..... القرن التاسع عشر             |
| ● محاكمة سقراط                      | ● مجموعة من الشعراء الروس          |
| ..... يوري فانكين                   | ● بين هاويتين                      |
| ● التجربة الأخيرة                   | ● مارينا تسفيتايفا، فاليري بربوسوف |
| ..... يوليا إغانوفا                 | ● رموز مقدسة                       |
| ● الخمس الأثينية والإسكندر المقدوني | ● نيقولا ي ربريخ                   |
| ..... أد. إيفان بفريموف             | ● الشاعر - الإنسان                 |
| ● الأخصوة السوفييتية المعاصرة       | ● رسال حمزاتوف                     |
| ..... د. ماجد علاء الدين            | ● ملحة الزمن                       |
| ● مجموعة قصصية                      | ● أقسم أنه كان حيا ...             |
| ..... جينكيز اينماتوف               | ● ذكره في القلب والدمعة للفضاء     |
|                                     | ● الأول تروي قصته                  |
|                                     | ..... أنا غاغارين                  |
|                                     | ● النطع                            |
|                                     | ..... جينكيز اينماتوف              |





В. ЖЕЛЕЗНЯК

## РАССКАЗЫ О ЖИЗНИ ДОСТОЕВСКОГО

لم يعرف الأدب العالمي بقديمه وحاضره، كاتباً فذاً تمكن من أن يغوص في أعماق النفس البشرية، كما كان الكاتب فيودور دوستويفسكي. إذ صوّر في رواياته الخالدة والمعروفة لدى القارئ العربي، مثل "الجريمة والعقاب"، "الأخوة كارامازوف"، "الأبله" وغيرها، طبيعة الإنسان وما يعاني في أعماقه من صراع حاد بين نزعات الخير والشر، والشهوات الجامحة، والمشاعر والأحاسيس المبهمة، والأفكار القلقة، وذلك بأسلوب فني فريد استقطب اهتمام القراء في مختلف أنحاء العالم.

في هذا الكتاب، يطلع القارئ إلى مجموعة من القصص التي تحيط بحياة دوستويفسكي، حيث اعتمد المؤلف من الوثائق مادة رئيسية في صياغة بعض هذه القصص، كما أتانا بشخصيات من الخيال، ربطها بسيرة حياة الكاتب.

وبالرغم أنه من الصعب جداً الإحاطة بأعماق شخصية الكاتب بمجموعة من القصص، إلا أن هذا الكتاب عكس لنا بعض الجوانب غير المعروفة في حياة هذا الكاتب العظيم.

ISBN 978-9933-18-819-1



9 789933 188191

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين - سورية - دمشق، ص. ب. ٣٠٥٩٨ هـ ٥٦١٧٠٧١ ف ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني ala-addin@mail.sy الموقع الإلكتروني www.zoyaala-addin.com